الاستاذة ايريس حبيب المصري

فن الأيقونة

مكتبة المحبة
MB

فـن الأيقــونة
أو
ثيئولوجيـة الجمـــال

عن

بولُ افدوكيموف

الـــلاهوتى الروسى

ايريس حبيب المصرى

قداسة البابا شـــنودة الثالث

بابا الاسكندرية وبطريرك الـكرازة المرقسية

حبيب أمين المصري

أيقونة ترمز الى الكنيسة القبطية

الاهـــــداء

الى أولئـــــك

الذين يعرفون ويتقبلون الرؤى فى الأشكال والنمـاذج التى أعطاها الله نفسه والتى رآها الأنبياء ،

الى أولئـــــك

الذين يحرصون على التقاليـــد المـكتوبة أو الشفوية المعطاة من الرسل الى الآباء ، والذين ـ لهذا السبب عينه ـ يسجلون بالصور الأمور المقدسة ويكرمونها :

اليهم جميعـــا

ذكرى أبدية وولاء خالص ..

« المؤلف »

مقـــــدمة

كلما ازداد الانسان تمعنـا فى أحـداث الحياة ازداد ادراكا لفعل النعمة الالهيـة · لأنه حتىحينما يقترف بعض الناس الجرائم فى حق البعض الآخر ويقف المعتدى عليهم فى الحيرة التى وقفهـا كاتب المزمور الثـالث والسبعين حينمـا رأى الأشرار فى سـلامة ـ حتى فى تلك الفترات المقلقة تتضح رعاية الله · فـكاتب المزمور لم يلبث أن استعاد توازنه حتى أعلن أنه مع الله دائما ومعه لا يريد شـيئا آخر ، ثم نجـد أرميـا أيضـا يعـاتب الله فيقول : « ابر أنت يا الله من أن أخاصمك · ولـكن أكلمك من جهة أحكامك · لمـاذا تنجح طريق الأشرار ؟ » (١) فان كان المترنمون بالمزامير والأنبياء وقفوا فى حيرة أمام حكمـة الله اللامدركة فـكم بالحرى غيرهم من اخوتهم فى الانسانيـة ؟ فليس بمستغرب أنتصيبنا هذه الحيرة ـ نحن أيضا ـ فنقف لنكرر على الهنـا السؤال عينه : لمـاذا ؟

---

(١) أرميا ١٢ : ١ ·

والاجابة على هذا التساؤل قد تظل طى الكتمان الى أن نصل الى الفردوس · ولكنها تتضح بصورة عجيبة فى بعض الأحيان ·

ولقد اصابت الحيرة الكثيرين منا بأزاء نجاح الشيوعية واستبدادها بكل من يؤمنون بالله · فاذا بالطغيان يضاعف حرارة الايمان ويجعل من الكنيسة المتألمة فى القرن العشرين كنيسة الشهداء تماما كالكنيسة فى العصور الأولى ·

على أن عددا من هؤلاء المتلئين بالروح القدس قد تمكن من الالتجاء الى البلاد الغربية ·

ومرت السنوات ·

واذا بالعدد الكبير من هؤلاء الروس يتجلون تجليا حقيقيا مذهلا · فلقد أصبح لهم اكليريكية فى باريس وأخرى فى الجزء الشمالى من ولاية نيويورك (٢) · وليس

---

(٢) كم كان فرحى عظيما حين اتاحت لى النعمة الالهية أن أزور هذه الاكليريكية وقد تضاعف فرحى حين وجدتنى أمام أيقونتين للقديسين العظيمين أنبا أنطونيوس وأنبا مكارى الكبير حالما دخلت باب الكنيسة الملحقة بهذه الاكليريكية · والأيقونتان بالحجم الطبيعى وطبقا لفن الأرثوذكسى الأصيل ·

ذلك فحسب بل لقد برز منهم عدد غير قليل من الآباء سبروا عمق الروحيات وكتبوا عن العقيدة والطقس والتقاليد والفن وغير ذلك من الموضوعات الأرثوذكسية الجذرية . وكلما قرأت لأحدهم أصابنى الذهول أمام الأعماق التى استطاعوا أن يسبروها وأمام الشواهق التى استطاعوا أن يتسلقوها !.

ولقد عرف البعض منا كتابات البطريرك أنتونى بلوم كما عرفوا كتابات الأب ليف جيليه من الترجمات العربية لبعض مؤلفاتهما . والى جانب هذين العملاقين الروحيين عمالقة عديدون . ومن أبرز هؤلاء اللاهوتى بول افدوكيموف الذى له الكثير من المؤلفات منها : « الزواج : سر المحبة » ، « المرأة وخلاص العالم » ، « الأرثوذكسية » ، « صلوات الكنيسة الشرقية » ، « معرفة الله » ، « الروح القدس فى التقليد الأرثوذكسى » ... ومن مؤلفاته كتاب : « فن الأيقونة : ثيولوجية الجمال » الذى يقع فى ثلاثمائة صفحة من القطع الكبير . ولقد حاولت فى الصفحات التالية أن أقدم للقراء خلاصة لهذا الكتاب الذى أنصح العارفين بالفرنسية أن يقرأوه فى أصله . فأنا لا أجد تعبيرا عما أحسست به عند قراءته غير أنه « يحبس الأنفاس » !.

وانى لأرجو كل من يقرأ هذا الملخص أن يتعمق معانيه لنعود من جديد الى فننا الأيقونى الأصيل . لأن فننا لايعبر عن أصالة أعماقنا فحسب ولكنه يتناغم مع عقيدتنا الأرثوذكسية أيضا فيعبر عنها تعبيرا روحيا عميقا .

القسم الأول

الجمـــال

« بعد أن استعاد تأسيس الصـورة الى كرامتها الأولى وحدها الـكلمة المتجسد بالجمـــال الالهى » ٠

أولا – الرؤيا الـكتابية للجمال :

ان العصـفور على الشجرة ، والزنبقة فى الحقـل ، والغزال فى الغـــابة ، والسـمك فى البحر ، والقطعـــان الوفيرة من البشر الفرحين – جميعهم يهتفون فى نشوة « الله هو المحبـة » !

وتحت هذه الأصـوات المرحة كلها – كأنمـا هى ذراع تُحملها جميعـا – يرن صـوت الشهداء « الله هو المحبة »! وهؤلاء الشهداء المجروحون من أجل العـــريس ، يمثـلون التنـــاغم الأصيل للنشيد الهـائل : نشيد الخلاص ٠ « انهم أولئـك الذين عرفوا أن يحبوا فوق كل شىء الجمال الملـكى حصيدة الأغابى الالهيـة المغروسـة فى أعمـاق القلب » كما يقول ذهبى الفم ٠

فالله حين خلق السماوات والأرض « رأى كل شيء جميلا » (٣) . وما دامت خلقة المبدع جميلة فبالأولى ملكوته (٤) . ومن هذا المنطلق فالأقنوم الثالث من الثالوث الأقدس هو روح الجمال . ويقول دويستوفسكى : (٥) « ان الروح القدس هو القبضة المباشرة للجمال » ، انه يعلن بهاء القداسة . او على حد تعبير غريغوريوس الأرمنى انه « روح البهجة الأبدية ... البهجة المنسابة فى الثالوث الأقدس » . فالروح القدس لا ينطق فى الأنبياء فقط بل هو أيضا يوحى للفنان رسم الأيقونة ـ اى أنه الأيقونوغرافى الأسمى .

---

(٣) كلمة جميل هى المرادف الأصيل للكلمة العبرية المستعملة فى التوراة المترجمة الى العربية بكلمة « حسن » .

(٤) تأمل أنبا كيرلس مطران أثيوبيا (سنة ١٩٢٩ ـ ١٩٥٠) بعض الحدائق فرفع عينيه نحو السماء وقال: « يا سلام يا ربى ـ ان كانت دنياك جميلة بهذا الشكل فكم يكون جمال ملكوتك ؟! » ومثل هذا التشابه فى الفهم الروحى يبين لنا مدى الصلة العقيدية التى تربط بين الأرثوذكس فى مختلف البلاد .

(٥) من كبار الكتاب الروس ، وهو أديب روحانى معا . وقد قاسى مرارة النفى فى سيبيريا .

واليوم الأول للخليقة في نظر الآباء ليس مجرد أول يوم بل انه اليوم الفريد القائم بذاته خارجا عن التسلسل : انه الألفا الذى ينادى على الأوميجا - ينادى على اليوم الثامن يوم التناغم النهائى يوم الكمال · والنور الذى تفجر على نداء الله « ليكن نور » هو الاستعلان الفاتن لوجه الله · فكلمة « ليكن نور » معناها « ليكن استعلان » ، وبعبارة أخرى ان الآب ينطق الكلمة والروح يعلنها فهو « النور - الاستعلان - التواصل » (٦) ·

وحتى بعد السقوط استمر « النور يضيء فى الظلمة »: انه لا يضيء لمجرد الاضاءة ولكنه يحول ظلمة الليل الى النهار الذى لا مغيب له « سيشرق نورك فى قلب الظلمة فيتحول الليل الى وضح النهار » (٧) · والكاملون يتفهمون الالهيات لا بالكلمة المتجسد فقط ولكن أيضا بنوره الذى هو الروح القدس تفهما سريا · ويصف غريغوريوس النيسى تسلق الروح الانسانية نحو الله بقوله انها تسمع هذه الكلمات : « لقد أصبحت جميلة باقترابك من نورى » · فالانسان مشفوط الى العلا ، وحين يكون فى النور يكون فى

---

(٦) L'Esprit Lumière - Révélation - Communication

(٧) أشعياء ٥٨ : ١٠ ·

التواصل المضيء الذى يكشف عن أيقونية الانسان المتضمنة أصلا فى الفكر الالهى ٠

ثانيا ـ ثيئولوجية الجمال عند الآباء :

يروى التقليد أن فلاديمير أمير كييف أرسل الى مختلف البلاد ليعيشوا فترة بين أهاليها ويعرفوا أديانها ٠ وعند رجوعهم اليه قالوا له عن المسيحيين : « لم ندرى أكنا فى السماء أو على الأرض ! فلا يوجد على الأرض مثل هذا الجمال ! ولكننا نعرف شيئا واحدا : ان الله يعيش مع الناس ٠٠٠ » فحضرة الله بين الناس هى اذن الجمال : انها تخطف الأبصار الروحية وتحملها الى التسامى ٠ وأعظم الآباء الشرقيين شعراء رآئيون ، فيقول غريغوريوس النيسى : « ان الثيئولوجى هو الذى يستطيع أن يعبر عن خبرته بالله بتعبيرات جمالية فيفصح عن تواصله المعاش » ومن هنا يمكننا أن ندرك قول الأب سرجيوس بولجاكوف عن أن الأرثوذكسية هى « السماء على الأرض » ٠ لأن ارثوذكسية فى قممها تستعلن نورا وجمالا ٠ بينما يقول القديس باسيليوس الكبير « ان الانسان بطبيعته يهوى الجمال ، اذن فالانسان فى جوهره مخلوق متعطش للجمال ، بل انه

التعطش ذاته لأنه صورة الله ومن « ذرية الله » (٨) . وفى تشابهه لله يعبر الانسان عن الجمال الالهى . ولا يزال هناك كتاب بعنوان « فيلوكاليا » ومعناه « حب الجمال » - يفهمنا بأن الناسك أو الروحانى أو المتأمل فى الالهيات ليس صالحا فقط بل انه جميل أيضا (٩) يشع بالجمال الالهى . فيعلن لنا غريغوريوس النزينزى : « لقد أقام الله الانسان « مرتلا لاشعاعاته » . بينما يؤكد لنا كيرلس الاسكندرى (١٠) : « ان طبيعة الروح القدس هى أنه روح الجمال ، وبالروح نتشارك فى جمال الطبيعة الالهية » . ونسمع مقابل هذا كله القديس مكسيموس يعلن لنا فى حديثه عن العليقة المشتعلة بأن « النار العجيبة اللامنطوق بها الكامنة داخل جوهر المخلوقات هى نار المحبة الالهية والوهج المتفجر للجمال الالهى فى أعماق هذا الجوهر » .

---

(٨) أعمال ١٧ : ٢٠ .

(٩) وهذا القول يتفق مع لحن يقال فى مديح مار جرجس جاء فيه « ... جميلا بالنعمة » .

(١٠) هو البابا الاسكندرى الرابع والعشرين - راجع سيرته فى الفصل الخاص به بعنوان « عامود الدين » فى حـ١ من كتاب « قصة الكنيسة القبطية » .

وهكذا يتصدر الفن التأملى نظرة الآباء الى الكون وان رؤياهم لفكر الله داخل الانسان تؤلف تيئولوجيا بصرية فخمة أو بالحرى « عشقا ايقونيا » (١١) · ويوضح بولس الرسول هذا العشق الأيقونى باعلانه أننا هياكل لله وروح الله ساكن فينا · فجمال السيد المسيح هو فى التعايش الذى يكمن داخله الحلول الالهى لأنه حيث يبقى روح الله هناك يتواجد الجمال · ومن هنا كانت السيدة العذراء « الثيئوتوكس » قمة الجمال الانسانى اذ هى المكان الممتاز الذى حل فيه روح الجمال · ومن هذه الوجهة نقول ان الأيقونات تصور البريق اللامنطوق به للجمال الالهى · لأن الانسان المخلوق على صورة الله ومثاله هو أيضا فنان وشاعر - أى أنه خالق أيضا - على قدر طاقته وامكانياته ·

و « المصلى » (١٢) ذو الذراعين المرفوعتين والنظرة المتطلعة نحو السماء يقف الموقف الصحيح للنفس الانسانية

---

(١١) iconosnsphie وبعبارة أخرى « حكمة أيقونية » ·

(١٢) orant - هذا التعبير يطلق على صورة الانسان - رجلا أو امرأة - واقفا وهو رافع ذراعيه وعينيه الى فوق فى موقف الابتهال · وهذه الصورة متكررة فى الكثير من الكنائس والمقابر التى للعصور المسيحية الأولى بوصفها الوضع الأمثل للانسان فى أصالته ·

ولبنائها على شكل صلاة . واخضاع الأرض لله هو تحويلها الى هيكل كونى للعبادة والتسبيح ، أو كما يقال فى المزمور « كل نسمة فلتسبح اسم الرب » . ويذهب بولس الرسول الى أبعد من هذا فيقول : « ... ختم بروح الموعد القدوس الذى هو عربون ميراثنا لفداء المقتنى لمدح مجده (١٢) . لذلك يهتف المصلون : « اذا ما اجتمعنا فى هيكلك نرى بعضنا البعض فى نور جمالك السماوى .. فالحياة الآتية قد انحنت لتختلط بالحياة الحاضرة ، وسطعت علينا شمس المجد بتنازل هائل ... وأعطينا خبز الملائكة » . والله - المحبة خلق المحبة والجمال وتجسد ومات حبا ، فهو - له المجد - يسر بكل أعمال الجمال التى هى مرآة تعكس مجده . انه ينعكس فى كل قديس ، فكل قديس هو أيقونة بهائه (١٤) .

---

(١٣) أفسس ١ : ١٤ .

(١٤) كان المسيحيون الأوائل (وما زال البعض منهم ، يخصصون ركنا من البيت يزينونه بأيقونة (أو أكثر) أمامها قنديل مضاء . ويطلق السلافيون على هذا المكان كلمة « ركن الجمال » .

ثالثا - من الاختبار الفنى الى الاختبار الدينى :

هناك تشابه صارخ بين الاختبارين : الفنى والدينى · فكلاهما اتجاه تأملى يقرب من الضراعة والصلاة · فالمتأملون فى الفن يقولون انهم يتفهمون الحق بحواسهم عن طريق الأشكال الفنية · والفنان يكشف عن جوهر الذات فى نقائها من شوائبها ويدفعنا التأمل فى ناحيتها المثلى أو بعبارة أخرى الى رؤية حقيقتها المختفية · فالجمال اذن يعطينا وجها لثلاثى أسمى : الحق والصالح والجميل · والفنان يأتى بنوره الى الظلمة فهو لا ينقل ولا يعيد ولكنه يخلق أشكالا محسوسة هى وعاء لمضمون أمثل (١٥) · والالتماح الباطنى للجمال هو نوع من النصر الخلاق على فوضى القبح · وهكذا نرى أن الفن يكشف لنا عن عمق لا يمكن لأبلغ منطق أن يعبر عنه ·

---

(١٥) الناقل ليس فنانا حتى ان نقل شيئا رسمه هو شخصيا من قبل لأن الموهبة الفنية الصميمة لاتستطيع الا أن تبتكر وهنا أيضا أكرر « من له أذنان للسمع فليسمع » ·

والانسان يقضى كل يوم على حافة هاوية ومع ذلك فهو فرح ! وهـذا هو اللامعقول النـــابع من الايمـــان · ففى الدينى يدخل الانســان الى صلة مطلقــة مع المطلق ، والمذهل فى هذه الصلة أنهـا تتحقق بواسطة الألم والوجع · وحينما يأتى الله لملاقاتنـــا يجعل من الأدبيـــات تنسكا ومن الفنون حلول جمـــاله · والانسان يثبت وجود الله بالعبادة لا بالأدلة – وهذا بالضبط هو التدليل الأيقونى الليتورجى ·

والمطلق هو الله – ولـكن الله ليس المطلق فحسب لأنه يفوق الـكمال المبهم لفكرة فلسفية · انه حى · كائن · انه للحب فهو الثـــالوث · انه « الله – الانسان » · وما كان من الممكن أن يكون العـالم الا لأنه محبوب ، ووجوده فى حـد ذاته يشهد للآب الذى « هكذا أحب العـالم حتى بـذل ابنـه الوحيـد » · وعلى هذا الضـوء يتكشف « المتأنس » عاشقا لـكل مخلوق · وعلى هذا المستوى من الحنان تعلو المحبة فوق الموت وفوق الألم وفوق القلق بل حتى فوق الندم لأن الله أكبر بما لا يقـــاس من قلبنـــا · وفى الخلفيـــة الأساسية لمضادة النور مع الظلمة نجد كتابات يوحنا الرسول تتركز حول التـداخل المتبـادل بين الله والنـــاس · ومن هنـــا يتضح جليـــا أن الجمـال الحقيقى ليس فى الطبيعـة

بذاتها · ولكنه فى الاستعلان الفائق الذى يجعل من الطبيعة المكان الكونى لاشاعة : يجعلها علقة مشتعلة ·

والبهاء هو ضمن الحق ولكن الحق لا يمكن أن يكون فى المبهم · انه يحتم التجسد · والسيد المسيح يجيبنا قائلا: « أنا هو الحق » ، وبالتالى يؤدى هذا التعبير معنى « أنا هو الجمال » · وجمال الابن صورة للآب ـ المصدر للجمال المستعلن بروح الجمال · وجمال الثالوث الأقدس هو الجمال الذى نتأمله فى الكلمة المتجسد لأن « من رآنى فقد رأى الآب » · ومن هذه الوجهة نستطيع أن نقول أيضا بأن وصيته « كونوا كاملين كما أن أباكم الذى فى السماوات هو كامل » معناها بالتالى « كونوا جميلين كما أن أباكم الذى فى السماوات هو جميل » · لأن شكل الكمال الالهى جميل من أصوله وهو هدف التأمل الصامت ·

والجمال الالهى فى نظر الآباء هو صفة أساسية ثيولوجية واضحة فى الكتاب المقدس · وتناغم الحقائق الالهية متجسد فى السيد المسيح : انه مرئى ومؤمن به وموضع للتأمل لأن « الانسان ـ الله » هو الشعلة التى يشع منها النور الثالوثى · فالغطاس والتجلى والقيامة

والعنصرة كلها تفجرات تمكننا من الرؤية · ذلك لأن الله يريد أن يكون ظهوره مرئيا بأكمله من الانسان · فالروح الانسانية ترى وتسمع وتحس وتتذوق · والطبيعة المتسامية تفصح عن جمال الله فى الوجه الانسانى كما يتضح لنا من وجه استفانوس الذى رأى المحيطون به « وجهه كوجه ملاك » (١٦) · ولأن الانسان متى تسامى استطاع أن يفصح عن جمال الله فانه - والحالة هذه - يتقارب فى شبهة بالله · لذلك يقال عن القديسين انهم « شبيهون جدا » - وهذا هو التأله · ويعلمنا القديس أثناسيوس الرسولى بأن التأله الذى يستهدفه الله للانسان يشمله كله : روحا وجسما · بينما يحدثنا أنبا مكارى الكبير (أبو مقار) عن « الالهى المحسوس » · فالنعمة المعاشة المحسوسة المليئة سلاما وبهجة ونورا هى توقع حاضر لما سيكون فى الملكوت ·

والوجه الساطع لله المتجه نحو الانسان هو وجه السيد المسيح المتجلى ، لذلك يؤكد لنا الآباء أن الأيقونة لا تصور لنا الناسوت ولا حتى اللاهوت وانما هى لمحة على الأقنوم الثانى وهكذا تصبح الأيقونة فى الاختبار

---

(١٦) أعمال ٦ : ١٥ ·

الدينى الانجذاب التلقائى نحو رؤية الله فى نور اليوم الثامن
ـ أو اليوم الذى لا مغيب له ·

رابعا ـ الكلمة والصورة :

يبدأ انجيل القديس يوحنا بسر الابن ويدعوه « الكلمة » · ونجد أن لغة الكتاب المقدس هى لغة الحوار حول الواقع الحى · ويحتفظ القداس الالهى بلغة الحوار أيضا ، فيتوسط « الكاس » للذبح لأن « الكلمة » يتحقق فى الافخارستيا ، ويستعلن الله الحى الواهب ذاته طعاما ·

والكلة يدخل التاريخ ولكنه لا يتكلم فحسب بل انه يصنع التاريخ أيضا ويهيب بالناس الى تأدية أعمال تعلن عن روحهم بوضوح · وكل كلمة بناءة تتوجه الى السمع والبصر فيقول لنا يوحنا الرسول : « الذى سمعناه · الذى رأيناه بعيوننا · الذى شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة · فان الحياة أظهرت وقد رأينا ونشهد ··· » (١٧) وهذا النص يعطينا شهادة مثلى للسمة البصرية التى للكلمة المتجسد · فالى جانب الادراك

---

(١٧) يوحنا (الرسالة الأولى) ١ : ١ـ٣ ·

الـــذهنى يقف الادراك الحسى ، والى جانب الـكلمة تقـف الصورة : فنسـمع أيوب يعلن : بسمع الأذن سـمعت عنك أما الآن فقد رأتك عيناى » ٠ فالـــكلة والصورة تتحاوران فى الـكتاب المقـدس وتنـادى كل منهما الأخرى معبرتين عن النواحى المـكملة لبعضها البعض فى الوحى عينـه ٠ ولهذا السبب فحينما عاهـد الله الانسان على عدم اهلاكه أعطاه قوس القزح علامة ٠ ومقـــابل صرخة اشعياء « آه لو تمزق السماوات وتنزل على الأرض » يجيبنـا الفـادى الحبيب : « الحق أقـول لـكم من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصـعدون وينزلون على ابن الانسان » (١٨) كذلك يعلن لنـــا « طوبى للعيـون التى تنظر ما تنظرونه ٠٠٠ » (١٩)

---

(١٨) يقدم لنـا افدوكيموف هنـــا الدرس الذى ردده الآباء الأرثوذكسيون من البـــداية والى الآن ، هو الترابط الوثيق بين جميع الأسفار الالهيـة : فالصرخة التى يرفعهـا النبى فى أشـعياء ٦٤ : ١ تتردد على مدى السنين الى أن يجيب عليها الفادى الحبيب فى يوحنـا ١ : ٥١ ٠ وهـــذا الدرس من أهم مايجب علينـا تذكره فى هذا العصر الـذى كثر فيـه تفسير الـكتاب المقـدس آية آية وتفتيته فيضـيع المعنى الروحى المقصود ٠

(١٩) لوقا ١٠ : ٢٣ ـ وهنـا أيضا يتضح لنـــا أن الفن الأيقونى من صميم التعـــاليم التى أعطاها لنـا السيد المسيح ٠

وكما شفى السيد المسيح الصم فتح أعين العميان ، فتكشف اللامرئى فى المرئى • ومذاك أصبحت الصورة من صميم المسيحية كالكلمة تماما : كلاهما وسيلة للتعبير عن الروحيات • وفى النهاية قدم لنا الكلمة المتجسد ذاته مقاما لنا : « خذوا كلوا هذا هو جسدى » • أما فى يوم الخمسين فقد اشتعل الكل بألسنة النار • وهكذا يجيئنا اللامرئى عن طريق المرئى فى الأيقونة ويلتقينا بحضرته ، كما يصبح القداس الالهى على الأرض أيقونة للقداس الالهى السماوى •

خامسا ـ غموض الجمال :

يقول لنا دويستوفسكى : « فى مقدور الانسان الاستغناء عن الكثير من شعوب الأرض ومن مخلوقات العالم ، ويمكنه أن يعيش من غير العلوم بل حتى من غير الخبز ولكنه لا يستطيع أن يحيا من غير الجمال ! ••• فالفن يتيح الفرصة للتجلى بنفاذ الجمال : انه شعاع من الأرض على الأرض • فان لم يحقق الفن أعجوبة التحول داخل نفس المتأمل فيه فليس فنا •••• »

والحقيقة الدينية تكمن فى داخلها القيم الأدبية والفنية • فلو تمكن أحد من أن يحرم الناس عما هو الرائى

العظمـة فانه فى الوقت عينه يحرمهم من الرغبـة فى الحياة اذ يموتون يأسـا (٢٠) ـ لأن اللا محدود واللامتناه يكون للانسان كضرورة الأرض التى يعيش عليهـا تماما · والتطلع نحو الجمـال يتنـاسق مع البحث عن المطلق واللانهـائى · فالتعبيرات ذاتهـا المنبعثـة من أيقونات التجسد والتجلى وغيرها دليل ملموس على أن هنـاك وحـدة خفيـة بين الفن والدين · وعلى الرغم من كل العراقيـل فالانسان فى عمقـه هو رغبـة لا تنطفىء وتعطش ملح نحو الوصول الى الملء : انه البحث عن الله · والنعمـة المؤازرة للانسان فى بحثـه هذا أن الروح القـدس هو التفهم الفورى للجمـال والضمير المنبىء عن التناغم ·

والجمال الطبيعى عابر رغم واقعيتـه · ولهذا السبب نجـد الجمـال فى قمتـه متجسدا فى قـديس · وأسمى قمة للقـداسة الانسانيـة هى السيدة العـذراء ـ فهى اذن أسمى قمـة للجمـال · فليس بغـريب أن يهتف المرنم عن السـيد

---

(٢٠) تتضح هذه الظـاهرة فى الدول الاسكاندينافيـة فمع أن شعوبها تتمتع بأحـدث انجازات العلوم والتكنولوجيا فان نسبة الانتحار بينهم أعلا نسبة حتى اذا قورنت بالشعوب النـامية !·

المسيح : « أنت أبرع جمالا من بنى البشر » (٢١) · ولهذا السبب نقرأ تلك الضراعة العميقة : « ان رغبتى الأكيدة هى أن تنعكس أيقونتك أيتها التيئوتوكس بلا انقطاع داخل كل نفس فتحفظها طاهرة الى آخر الدهور ، وترفع أولئك المنحنين على الأرض ، وتمنح الرجاء الى أولئك الذين يتأملون ويقتدون بجمال ربهم » (٢٢) وهذا الجمال هو القوة الشافية المتبعثة من السيد المسيح الشافى الأعظم الذى بعد أن استعاد للانسان كرامته الأولى وحده بالجمال الالهى ·

سادسا ـ ١ ـ الله والانسان :

ان الله هو الخالق والفنان والشاعر والانسان المخلوق على صورته ومثاله هو أيضا فنان وشاعر وخالق على مستواه الخاص · وفى هذا المعنى يقول غريغوريوس الارمنى : « ان الله اللامدرك اللامنطوق به غير المفحوص قد شاء أن يصبح فى متناول ذكائنا » · ويذهب اكليمنضس الاسكندرى الى أبعد من هذا فيقول : « ان الانسان على

---

(٢١) مزمور ٤٥ : ٢ ·

(٢٢) يظن بعض المؤرخين أن هذه الضراعة رفعها ديونيسيوس الاريوباغى ·

مثـال الله لأن الله على مثـال الانسان · فلقـد نحت الله الانسان وهو يتفرس بحكمتـه فى الانسانيـة السماوية التى للسيد المسيح · فهو قـد خلق الانسان على صورته استهدافا للتجسد » · وأحلى صـورة لتلك الصلة الخفيـة بين الله والانسان هى أيقونة السيدة العـذراء تحمل ابنهـا على ذراعها - فهـذه الأيقونة تقول لنـا انه مادام هنـاك ميلاد لله فى الانسان فهناك أيضا ميلاد للانسان فى الله بالتسامى · ويقول القـديس غريغوريوس النيسى : « ان الانسـان هو الوجه الانسانى لله · اذن فالانسان المهيأ للافراح الالهيـة قـد نال فى طبيعتـه قرابة لمـا هو مزمع أن يتمتع به » · فى حين أن الأنبـا مكارى الـكبير يعلن بأن أعظم قرابة هى تلك القـائمة بين الله والانسان · فالانسان مخلوق صـدر اليه الأمر بأن يصـبح بالنعمـة الهـا · وعليه أن يوحد بين الطبيعـة المخلوقة (التى هى طبيعتـه) بالقوى الالهيـة اللامخلوقة · وحينما يقول الانسان « أنا كائن » فهو يعـبر انسانيا عن جزء من مطلقيه الله فى قوله : أنا هو » ·

ولقـد كانت هذه الحقيقـة المـذهلة واقعـا معـاشا للآباء استطاعوا معهـا أن يدركوا الرسـالة الفاتنـة التى للانجيل ·

فهذه الرسالة مدوية ومذهلة فى آن واحد اذ هى تؤكد لنا أن حب الله للانسان حب جنونى ! ويصف لنا أسقف موسكو هذا الحب الجنونى بقوله : « ان الله الآب هو الحب الذى حكم بالصلب والله الابن هو الحب المصلوب والله الروح القدس هو القوة اللا مقهورة التى للصليب(٢٣) ولقد تعمقت جرأة الآباء فى عقيدتهم هذه حتى لقد قالوا ضمن الصلوات الجنائزية : « اننى حامل سمات آثامى ولكننى على صورة مجدك اللامدرك (٢٤) ٠

والتأله فى العقيدة الشرقية ليس حلا منطقيا ولا هو نظرية ولكنه حل حياة النعمة : حل المضادات ٠ هذه المضادات التى هى سمات الله ذاته ٠ اذ كيف يمكن أن يكون الله المطلق والنسبى معا ؟ كيف يكون الله فوق التاريخ وفى التاريخ ؟ هنا سر محبته التى تعلو على اللانهائيته فتجعل منه ابا متحننا ٠

---

(٢٣) هذا هو نفس التعبير الذى استعمله الأب متى المسكين فى عدد من مقالاته عن خميس العهد وعن المحاكمة التى انتهت بالصلب ٠

(٢٤) من المعروف عن أنبا أنطونيوس أنه كان يكرر لتلاميذه وصيته : « كونوا جسورين يا أولادى - كونوا جسورين » ٠

٢ - الكنيسة والعالم :

ان كل خير اذا استعمل العنف والتسلط على الضمير يتحول الى شر ، يصبح كابوس الخير المفروض الذى يتجاهل تلك الحرية التى منحها الله للانسان ودفع الصليب ثمنا لها . واننا لنجد الأنبا كيرلس الاسكندرى (عامود الدين) يقدم صورة الأب والابن بدلا من صورة السيد والعبد فى نقاشه مع الوثنيين (٢٥) . لذلك - فمقابل السيطرة على العالم أو اخضاعه لسلطة الكنيسة يقوم نداء الانجيل عن معنى العظمة الحقيقية : « من أراد أن يكون فيكم عظيما فليكن للجميع عبدا » . فالكنيسة بما لها من قياس كونى شامل ، وعن طريق الدياكونية التى تتمثل بصورتها العظمى فى السامرى الصالح ، تقيم الكبارى فوق الهوات وتلغى كل تفرقة . ومن هذا المنطلق يكون المعنى الحقيقى لاخضاع العالم هو جعله هيكلا لله : تقديسه بدفعه الى الانتقال من حالته الشيطانية

---

(٢٥) هنا درس لنا بالغ العمق : فقد ظللنا ننادى قداسة البابا بكلمة « أبونا » الى نهاية الربع الأول من القرن العشرين ، ثم استبدلنا هذه الكلمة الحلوة الدالة على علاقة المحبة بكلمة « سيدنا » ابتداء من رياسة البابا المئة والثالث عشر !.

الى حالة كونه مخلوقا لله · فليس هنـــاك من شكل للحياة بكل مافيها متغربا عن الله وعن شمولية التجسد له (٢٦) لأن السيد المسيح هو الأسقف الفريد والعلمانى الفريد معا · لقـد أحب الله العـالم وهو فى حالة الخطيـة · فانتصـار السيد المسيح حتى نزوله الى الجحيم يتخذ قياسا كونيـا يهدم كل الحدود ، والتأله فـكرة ديتاميكية جذرية يتردد صـــداه على الكـون بأسره على نمط الذوكصولوجيا التى تمد مجد الله على كل انسان ·

والله حاضر فى العالم الى جانب كونه حاضر فىجسده الذى هو الكنيسة · والـكنيسة عليها أن توضح هذه الحضرة الخفيـة فتعمل ما عمله بولس الرسـول فى أثينا حين كشف النقـاب عن « الاله المجهول » معلنـا أنه يسـوع المسيح · فروح الله الذى رف قـديما على وجه الميـاه هوهو بعينـه الذى ظهر بشكل حمـامة فوق الأردن (٢٧) · وهذه الحضرة

---

(٢٦) هنـا أيضـا ترى اتفـاق الفكر الأرثوذكسى لأن هـذا التعليم بعينـه نقرأه فى « مسيح العـالم كله » ـ فى الـكتاب الأول من « أعيـاد الظهور الالهى » المطبوع سنة ١٩٨٠ للاب متى المسكين ـ ص ٥٣ ـ ٥٩ ·

(٢٧) تكوين ١ : ٢ ، مرقس ١ : ١٠ ·

تهب البركة للعالم كله منذ البدء ، فنرى أن السيد المسيح ساعة صعوده بارك التلاميذ قبل أن يفارقهم · وهذه البركة منحة لكل العالم فى أشخاصهم : « كل شىء لكم وأنتم للمسيح » ·

٣ ـ كرامة الانسان والنعمة الممنوحة له :

ان تكوين الانسان من جسد وروح هو الذى يجعل منه كائنا كاملا ويضعه على قمة المخلوقات · وما يميز الانسان عن الملائكة هو أنه مخلوق على صورة الابن المتجسد ممنوح النعمة من الروح القدس يخترق بها كل الطبيعة بأنشطته الخلاقة · والله فى الكتاب المقدس ليس المطلق فقط بل هو أيضا « الله ـ الانسان » · وهذا هو السبب فى أن الله أعطى الانسان صورته لكى يفجر القيم الخالدة لمادة هذا العالم وليعلن القداسة باستخدامه جسده ·

والواقع أن الانسان لا يعكس النور كالملائكة ولكنه يصبح نورا تبعا لقول السيد المسيح « أنتم نور العالم » وتعبر الأيقونة عن هذه الحقيقة بالهالة المحيطة برأس

القديس · وفى هذا الصدد يقول غريغوريوس الأرمنى : « ان أحد أهداف التجسد هو تكريم الجسم كى لا تزعم الأرواح المتشامخة أنها أكثر كرامة من الانسان » ·

ويعلمنا الانجيل أن كلمة « خلاص » معناها «شفاء» : « ايمانك قد خلصك » · والسيد المسيح الشافى الأعظم يعطينا الافخارستيا دواء للخلود ، أو كما يقول اللحن الكنسى « خبز الخلود » · وهذا الشفاء يتضمن التنقية التامة من كل بذرة شيطانية ليصل بالانسان الى شكله الأول « على صورة الله » · والخليقة تبعا لمعناها فى الأسفار الالهية أشبه بالحبة التى تأتى بثلاثين وستين ومئة ، ولا تكف عن النمو : « أبى يعمل حتى الآن وأنا أيضا أعمل » · ولقد خلق الله العالم مع الزمن ، وهذا معناه أنه غير كامل النمو · وقد خلقه هكذا لينمو ويتطور ، ولذلك أقام له الأنبياء والفعلة الصالحين على مدى التاريخ كى يتناسق التعامل الالهى والتعامل الانسانى الى ذلك اليوم الذى تصل فيه الحبة الى نضوجها النهائى · ولقد هيأ الله الانسان لهذه الرسالة فيقول لنا غريغوريوس النيسى : « ان الانسان تنظيم موسيقى أو هو ترنيمة عذبة مؤلفة من كلى القدرة الخلاقة » · أما

غريغوريوس النزينزى فيعلن : « ان مجدك أيها السيد المسيح هو الانسان الذى جعلت منه مرنما باشعاعاتك » · ويكمل غريغوريوس الأرمنى هذا الوصف « ولكون الانسان قد استنار على هذه الأرض من الآن فانه يصبح كله أعجوبة ويتسابق مع القوات السمائية فى تسبيح لا ينقطع ، وفى الوقت الذى هو فيه كملاك على هذه الأرض فهو يقود كل الخلائق الى الله » ·

والمحبة العنيفة المتطهرة بالنسك الحقيقى هى المصير المستهدف للانسان · فالحنان المتناهى الذى يبديه كبار القديسين كالأنبا مكارى نحو كل الخلائق حتى نحو الثعابين بل حتى نحو الشياطين هو الوسيلة الأيقونية للتأمل فى العالم · ان هذا الحنان هو محاولة استشفاف الفكر الالهى · ومن هنا تنبع البهجة الكونية للارثوذكسية وتفاؤلها اللامتزعزع وتقييمها الأقصى للكيان الانسانى · فيعلمنا اكليمنضس الاسكندرى : « بعد الله اعتبر كل انسان مثل الله » ·

ان العالم أشبه بمثل والانسان مطالب بقراءة أبياته الشعرية التى خطها الله فى مادته · فالصور والأمثال الكتابية والمادة الكونية التى تتألف منها الأسرار المقدسة

ليست اعتباطا : بل ان كل شيء صورة وشبه وتشارك في التدبير الالهي ، وكل شيء تسبحة وتمجيد · اذن فالأشياء ليست أثاثات سجننا ولكنها مفروشات هيكلنا ·

والانسان عليه أن يحرث الحقل الواسع الذى هو العالم ، وأن يشتغل فى كل مجالات الفنون والعلوم لكى يبنى الكيان الانسانى الذى استهدفه الله · وهذا الكيان لا يمكن تأسيسه الا على الدياكونية بمعناها الكتابى لا بوصفها خدمة والتطعيم داخل الجديد المطلق المرغوب فيه : المطلق كما حدثنا عنه سفر الرؤيا ·

٤ ـ الفلاحة ـ المصير المطلوب لها :

ان التاريخ لا يتحكم فى ذاته لأن كل الحوادث تحال الى ذلك الذى يملك « كل سلطان فى السماء وعلى الأرض »، وحتى كلمة مثل « اعطوا مالقيصر لقيصر » لا معنى لها الا على ضوء الايمان · فقيصر ليس قيصرا الا من حيث الصلة بالله · والتشكك فى أن الانسان قادر على السيطرة على الكون وقادر ـ فى الوقت عينه ـ على السيطرة على نفسه : التشكك فى هذه المقدرة المزدوجة هى انكار لكل مايعطيه كرامته بوصفه ابنا لله ·

والانسان لم يكن قط وسيلة لله اذ أن الشخصية الانسانية هى قيمة مطلقة لله ، انها الصديق الذى يتوقع منه الله ردا حرا من الحب ومن الخلق · لذلك فالانسان لا يعيش انتظارا سلبيا ولكنه يعيش استعدادا نشطا متأهبا للمجيء الثانى · والسيد المسيح يأتى الى خاصته : يأتى الها بين من أضفت نعمته عليهم بسمة الألوهة · ومصير العالم كله معلق على الوجهة المبدعة الخلاقة التى للكنيسة وعلى فنها فى تقديم بشارة الانجيل استهدافا لتقبله من جميع الناس · والفلاحة بكل درجاتها هى المجال المباشر لهذه المواجهة ·

والوجهة المسيحية نحو العالم لا يمكن أبدا أن تكون سلبية سواء كانت نسكية أو توقعية : انها دائما ايجابية تمتد باستمرار نحو التفتح على الحياة الباقية · ويضع لنا القديس بولس الميزان الدقيق معلنا أن الأساس الفريد لكل انسان هو يسوع المسيح : « وعمل كل واحد سيصير ظاهرا ··· وستمتحن النار عمل كل واحد ··· والانسان أيضا ··· فسيخلص ولكن كما بنار ··· (٢٨) على أن هناك أعمالا تقاوم النار · اذن فليس المقصود فى

---

(٢٨) ١ كورنثوس ٣ : ١١ - ١٥ ·

النهاية مجرد خراب هذا العالم ولكن المقصود هو التمحيص من الآن . والعمل الذى ينتصر بعد التمحيص هو العمل المتسم بمواهب النعمة ويدخل ضمن عنصر البناء فى « الأرض الجديدة » . ويبين لنا فلك نوح من هم الذين سيخلصون : وهذه الرؤيا النبوية القديمة رمز للممر الكبير الى الملكوت من خلال النار .

والفلاحة - فى منتهاها - هى النفاذ داخل الأشياء والناس لدرجة الوصول الى فكر الله عنهم ، انها استكشاف روحانية النفوس وشكلها المتجلى . والأيقونة تعمل هذا بوصفها « صورة موصلة » لأنها رؤيا مباشرة : نافذة مفتوحة على اليوم الثامن .

والتضاد فى الايمان المسيحى ليس فى أن الطريق غير ممكن ولكنه فى أن غير الممكن هو الطريق ! « فالسلطة الالهية فى مقدورها أن تخترع طريقا فى اللاممكن » على حد تعبير غريغوريوس النيسى .

وتنتشر اليوم معضلة خاطئة هى محاولة ايجاد تقابل بين مبدأ « المسيح فى الكنيسة » و « المسيح فى العالم » لأن الهدف المقصود ليس تكييف الكنيسة

تبعا لعقلية العالم ولكنه تكييف الكنيسة والعالم - كليهما - للحقيقة الالهية : للفكر الالهى للعالم كما هو فى أصالته · فالسيد المسيح يرسل كنيسته فى التاريخ ليجعل منها - فى مختلف فترات هذا التاريخ - المكان المهيأ لحضرته لكى يعطى الجميع أن يعيشوا اليوم الذى لله فى اليوم الذى للناس · وحضرة السيد المسيح كونية ومع هذا فالكنيسة جسده · وهو - له المجد - يهيب بها أن ننتقل من الأشكال الرمزية الى الحقيقة المتفجرة فى الانجيل : أن تصبح تلك الذوكصولوجية الفاتنة المشتعلة بديناميكية الروح القدس المحرر الذى يحدثنا عنه يوحنا الرآئى ·

٥ - الفلاحة وملكوت الله :

يقول لنا بولس الرسول : « فاننا نحن عمال مع الله وأنتم فلاحة الله ···» (٢٩) ، بينما يخبرنا الرآئى بأن « الشعوب سيأتون حاملين مجدهم وفخارهم » - أى انهم لن يدخلوا الملكوت بأيد فارغة · ومن هنا يمكننا أن ندرك أن كل ما يقرب الفكر الانسانى الى الحقيقة ، وكل

---

(٢٩) ١ كورنثوس ٣ : ٩ ·

ما يعبر عنه بالفن ، وكل ما يكتشفه من العلوم ، وكل ما يعيشه باتجاه نحو الأبدية - كل هذه القمم المعبرة عن عبقرية الانسان وقداسته ستدخل معه الى الملكوت وتتوافق مع حقيقة كيانها الاصيل كما تتوافق الصورة الدقيقة من أصلها ٠

واننا لنجد الكتاب المقدس يحدثنا عن جلال القمم الجبلية ، وعن مداعبة البحر لشاطئه ، وعن السنابل الذهبية التى تتمايل مع النسيم - هذه كلها مع الأيقونات البديعة ستجد تمامها حينما يرتوى عطش هذا العالم نهائيا٠ على اننا نسمع من الآن خلال الألحان القداسية صوت السيد المسيح معلنا حضرته السرية أمامنا وفى داخلنا ٠ فلئن كان كل انسان مخلوقا على صورة الله هو أيقونته الحية فالفلاحة الأرضية هى أيقونة ملكوت السماوات ٠ وفى لحظة العبور الأعظم سيمس الروح القدس هذه الأيقونة فيبقى على جزء منها الى آخر الدهور ٠

وفى الليتورجيا الأبدية التى للدهر الآتى سيترنم الانسان خلال كل عناصر الفلاحة التى تطهرت بالنار بتمجيد الله ٠ على أن الانسان هنا - فى هذا الدهر - فى كل أنشطته : العالم والفنان وكل العاملين فى

مختلف المجالات ، لكونهم كهنة تبعا لموهبة الله ، سيؤدون ليتورجيتهم الخاصة حيث سيستعلن السيد المسيح فيهم بمدى نقاء أوعيتهم · انهم كالأيقونوغرافيين - يرسمون بمادة هذا العالم ممتزجة بالنور المتجلى على جبل طابور حقيقة جديدة يتبدى منها تدريجيا الكيان السرى للملكوت·

ولكى نلتقى بالجمال وجها لوجه ونتفهم اشعاعات النعمة الصادرة عنه يجب أن نتسامى ونتخطى حدود المحسوس والمعقول لنقف على عتبة الهيكل : وهذا كله هو الأيقونة · فالجمال يأتى لمقابلتنا لا لكى يبهرنا ولكن ليفتح أرواحنا على الاشتعال الملازم لاقتراب الله الشخصى فنرى آنذاك أن العليقة المشتعلة هى أمامنا من الآن · والفن الأيقونى يدخل ضمن السر القداسى فتنساب منه الحضرات القدسية · ولأن الأيقونة متحررة من الواقع المادى يستطيع الأيقونوغرافى أن يرسم لنا الشهيد واقفا وهو حامل رأسه المقطوع على يده ، وأن يضع جمجمة آدم عند قدمى الصليب ، وأن يجسد الكون فى شكل ملك كهل ، بل يستطيع أن يجمع فى نقطة واحدة كل الأزمان وكل الفضاء ! والنور يجعل الأيقونة تسطع من ذاتها فتشابه المدينة السماوية التى لا حاجة لها الى الشمس لأن نورها هو السيد المسيح ·

وفى عصرنا يهيب بنـــا الفـن الأيقونى أن نعـــاود استكشاف السلطة الخلاقة العظمى التىكانت للايقونوغرافيين الأوائل فنطرح جانبا سلبية الاكتفاء بالنقل عن الغير ٠

والليتورجيـا تعلمنـا اليوم أكثر مما علمتنـا بالأمس أن الفن يتحلل لا لـكونه وليد عصره ولـكن لـكونه لم يطع وظائفـه القـدسية ٠ ان مهمة الفن الأيقونى هى جعل الفـن مركزا للحضرة الالهيـة وللتجلى الالهى ٠ انه يعكس لنـــا صـورة « المرأة المتسربلة بالشمس » : بهجة كل الابتهاجات التى ينساب منها الحنان بلا توقف ٠

القسم الثانى

المقدس

أولا - الكونية فى الكتاب المقدس وعند الآباء :

١ - تمهيد :

ان السرد الكتابى للخليقة يصف السير التقدمى لهذه الخليقة وينتهى عند الانسان · وفى هذا السرد يبدو الانسان القمة لها ، أو بالحرى المركز الذى حوله كل مخططات الكيان· وهنا المركز الرئيسى للانسان يفسر خضوع الطبيعة له · فالانسان « يفلح » الطبيعة ، ويعطى المخلوقات والأشياء أسماءها ، « يؤنسها × » ان صح هذا التعبير · وصلة الانسان المباشرة بالخلق ترسيخ لكيانه · فالسقوط لم يؤد الى انحراف صلة الانسان بالله فقط بل أدى أيضا الى انحراف صلته بالكون كله ·

ومهما يكن المعنى الذى نفسر به السقوط فمن الواضح أنه مأساة حدثت على عتبة الوجود التاريخى وحددته·

× "humanize it"

والاستعلان الالهى وحده هو الذى يكشف عما يظل بعيد المنال وأبعد عن كل فحص اختبارى · فهذا الاستعلان يمكن الانسان من أن يدرك اللامدرك · وبما أنه بسقوطه فشل فى الارتفاع بالطبيعة فقد تحتم انتظار مجىء السيد المسيح ليفتح السماوات ويعيد امكانية الوصول اليها · والطبيعة تنتظر هذا الوصول فى الانسان المتأله ومعه (١) ·

٢ ـ المفهوم الكتابى :

ان كلمة « خلق » فى أصلها العبرى تعبر عن عمل الهى فقط : انها تعنى طريقة معينة من التصرف لا يستطيعها غير الله · فالله خلق العالم ثم عاله وحمله ، وهو لذلك يتدخل بل انقطاع فى التاريخ · فكل ذرة من هذا العالم هى عمل الله · ويترنم المزمور المئة والرابع بليتورجياكونية من التسبيح للخالق (٢) الذى يعرف عمله ويستحسنه ·

---

(١) التأله هو أن يتسامى الانسان بنفسه نحو بلوغ الكمال الذى أوصى به السيد المسيح ـ وهذا تعليم نادى به الرسل والقديسون · أما التأليه فمعناه أن يقيم الانسان من نفسه الها كما كان يفعل الملوك قديما فيطالبون شعوبهم بعبادتهم ·

(٢) ونجد ترنيمة مماثلة فى التسبحة التى رفعها اخناتون فرعون مصر لله الواحد مبدع الأكوان ·

ولقد حدث السقوط بين الملائكة أيضا وهم أرواح مجردة . اذن لم يأت الشر من المادة ولكن الروح هى التى تنتهك حرمتها باقامة الأصنام منها : فالخطية الجسدية فى جوهرها خطية الروح ضد الجسد .

والمادة ليست جامدة : انها مليئة بنشاط مركز ولو أنه شبه نائم . وليس هناك شىء واقفا اذ يقول لنا أشعياء النبى « الرب خالق أطراف الأرض لا يكل ولا يعيا (٣) فى حين أن رب المجد يعلمنا : « أبى حتى الآن يعمل وأنا أيضا أعمل » (٤) . فالزمن فى مفهوم الأباء هو أن النظام العالمى فى خلق مستمر وفى حركة دائمة متجهة نحو الكمال : « من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا الى ذلك اليوم حينما أشربه جديدا معكم فى ملكوت السماوات » (٥) .

وفى العهد العرسى بين يهوه واسرائيل نجد عناصر العالم هى الرسالات المادية فى حوار « تصويرى » :

---

(٣) ٤٠ : ٢٨ .
(٤) يوحنا ٥ : ١٧ .
(٥) متى ٢٦ : ٢٩ .

فالنور والنار والماء والزيت والملح والنبيذ والقمح والخبز بل والحجارة والصخور كلها وسائل تعبيرية ، وحتى التراب والرماد عما صورة لحدود الموت والفناء · وهذه العناصر عينها تصبح المادة الكونية لليتورجيا المسيحية - فيعلن لنا السيد المسيح انه « خبز الحياة » ، و « الله نور » ، بينما يقول عنه اليهود « الهنا نار آكلة »· ومن هذا المنطلق فالانسان كلما كان انسانا وكلما اقترب من كونه أيقونة حية لله تفتحت شخصيته وعاش السيد المسيح فيه كما نرى مثلا فى بولس الرسول ·

وملكوت الله مرموز اليه بوقائع أرضية مادية يومية : زارع معه الحبوب وتفوح منه رائحة الأرض الطيبة ، امرأه خبأت خميرتها داخل عجينها ، الكرمة ، شجرة التين ، سنابل القمح ، زنابق الحقل · فالوجود المحسوس يحمل داخله كل ما يلزم لتعليمنا أعمق الأسرار للخليقة الالهية ·

وكل رمز فى المفهوم الليتورجى يحمل فى داخله شيئا من حضرة المرموز اليه ، وأقصى حد لهذه الرموز هو اسم الله نفسه · فالله حاضر فى اسمه : ان اسمه هو المكان الاسمى للحضرة الالهية · لذلك فالأرض والسماء ليستا

صورا توقعية للسماوات الجديدة والأرض الجديدة ولكنهما الطبقة السفلية للتغيير العتيد . وبهذا المفهوم ندرك أن السيد المسيح فى العشاء الشرى أعطى جسده ودمه فعلا وواقعيا لرسله .

اذن فالرموز الكتابية هى واقعية ملموسة .

وكلمة العهد الافخارستى « هذا هو جسدى » معناها الجسد الحى : المسيح بأكمله مانح لكل متناوله تواحد الجسد وتواحد الدم تواحدا محييا . ويتغنى الآباء بهذه الحقيقة المذهلة المعبر عنها بالصلاة : « أنت يا سيدى . يا من أعطيتنى جسدك طعاما لى ودمك مشربا لى . تخلل كل أعضائى وكل منافذى وكليتى وقلبى . قوى مفاصلى وعظامى . ورسخنى بأكملى فى محبتك » . كذلك حينما أعلن يوحنا أن « الكلمة صار جسدا أراد أن يفهمنا أن الله اتخذ طبيعتنا الانسانية فى شاملها وفيها كل الكون . أما « قيامة الأموات » التى نقولها فى قانون الايمان فهى اعادة تركيب الانسان بأكمله : نفسا وجسدا - وهكذا « يبصر كل جسد خلاص الله » ... ويحدثنا بولس الرسول بأنه « ان كان انساننا الخارج يفنى فالداخل يتجدد يوما

فيوما » (٦) لأنه « ان كان أحد فى المسيح فهو خليقة جديدة » (٧) · فالكتاب المقدس يبين لنا أن النفس فى تجدد مستمر وفى تفجر نحو أمور لا يمكن التكهن بها · فملكوت الله ليست مجرد الرجوع الى الوراء — الى الفردوس — ولكنها الملء الخلاق الممتد الى الأمام الشامل لكل ماهو كائن ·

٢ — الفكر الآبائى :

ان الخليقة لم تبرز الى الوجود عن اضطرار : بل هى عمل الارادة الالهية : انها من ارادة الله وليست من طبيعته ، ويقول لنا يوحنا الدمشقى : « ان الله تأمل كل شىء قبل أن يخلقه ورآه فى فكره قبل أن يوجده · وكل كائن ينال وجوده فى لحظة معينة تبعا للفكر — الارادة الصادر عن الله » · والفكر — الارادة الانسانية للفنان منفصلا عن خلائقه كما تظل الارادة الانسانية للفنان منفصلة عن انتاجه ·

---

(٦) ٢ كورنثوس ٤ : ١٦ ·

(٧) ٢ كورنثوس ٥ : ١٧ ·

وتوافق الارادة الانسانية مع الارادة الالهية يتضمن الحرية وبالتالى يتضمن كمالا متطورا · والتوجيه الآبائى: « صر ما يجب أن تكونه » معناه تحول الى مكان الشبه الالهى والمسكن المهيأ لله · فالطبيعة المحسوسة ليست مادية فى أعماقها ، انها مشحونة بالأنشطة ، بل انها لتمثل شيئا من العالم الذهنى والروحى · وهذا التفكير الآبائى يوضح لنا أن مفهومهم مفهوم ديناميكى · والرؤية الأيقونوغرافية بهذا التعليم · انها تفسر النتائج النهائية للتجسد : تقديس المادة وتجلى الجسد · وفى حب عنيف تعطينا رؤية « الجسد الروحانى » - تعطينا التوازن التام بين ماهو الهى وما هو انسانى · فهى اذن تحول النظر نحو البهاء الساطع للطبيعة الأرضية فى ضوء جبل طابور ·

ويقول لنا غريغوريوس النيسى : « ان الانسان ليس نتاجا لنظام معطى للارض ، ولكن بما أنه موضوع على حدود العالمين الروحى والمادى فواجبه الأول أن يجعل الخليقة كلها تشاركه حالة التأله » · بينما يقول القديس مكسيموس : « على الانسان أن يرسخ التناغم بين المذكر والمؤنث ، وأن يفلح الأرض الى فردوس ، وأن يجمع بين الأرض والسماء ، وأن يوحد فى داخله بين المحسوس

والمعقول ـ أى ان عليه أن يعيد الى الله الكون فى الحالة التى أرادها له الله من البداية » ٠

ولقد أوضح السيد المسيح فى شخصه هذا الواقع : واقع تحويل العالم نحو التشارك فى الطبيعة الالهية ، فقد لمسناه بأيدينا ورأيناه بعيوننا » ، وهو ـ له المجد ـ قال : « أنا هو الباب ان دخل أحد بى يدخل ويخرج ويجد مرعى » ٠ فالخلاص هو التوبة الانسانية والكونية معا : التسامى المتكامل الملء بكل الطبيعة الى مستوى الملكوت ٠ والزمن الكتابى ايجابى : انه يزن الطبيعة التى تعكس صلاح الخالق ٠ وتبعا لهذا التعليم فالأزمنة المتوافقة تفتح العالم على الأبدية : على يوم الله الذى ينغرس منذ الآن فى يوم الانسان ويسير بالعالم نحو « الله الذى سيصير الكل وفى الكل وللكل » ٠

٤ ـ الطبيعة الأسيرة :

ليس شىء فى الطبيعة نجسا فى حد ذاته ولكن الفكر الشيطانى أو الفكر الانسانى المنحرف يمكن أن يوسخه ٠ فان تنازل الانسان عن رسالته فى تأنيس العالم يصبح عبدا للعالم ويغوص فى المحسوسات التى منها يصنع الأصنام ٠ والوثنية انحراف عن تدرج القيم وادخال اللاموجود على

الطبيعة - أى أنها عنصر من الكذب والخداع . ويصف لنا سمعان اللاهوتى الجديد ثورة الطبيعة على الانسان الساقط فيقول : « لقد استعدت السماء لأن تسقط على رأسه ورفضت الأرض أن تحمله . ولكن الله فى شامل تحننه لم يدع العناصر تتفكك ضد الانسان فأمر الخليقة بأن تظل خاضعة له ، ومادامت قد أصبحت فانية عليها أن تخدم الانسان الفانى الذى خلقت من أجله . وعلى ذلك فمتى تجدد الانسان ستتجدد الخليقة أيضا وتصبح غير فاسدة وبطريقة ما روحية . وفى النهاية سيتكامل الانسان فى الله ويتكامل الكون فى الانسان وتسطع الشمس والنجوم من داخل النفس الانسانية » .

والسقوط لم يلمس الصورة الالهية داخل الانسان وانما أوصلها الى السكوت بتحطيم المثال - أى بتحطيم تحقيق الصورة الالهية . ويقول لنا القديس انطونيوس (كما صوره لنا القديس أثناسيوس الرسولى) : « ان طبيعتنا هى أساسا صالحة » . فالتنسك يعيد التوازن الذى هو « عودة ما هو منير للطبيعة الى ما هو من أصلها » . وتوضح لنا ثيؤلوجيا القديس بولس عمومية عمل السيد المسيح ، فالتجسد يدخل الطبيعة كلها ضمن عمل

الخلاص اذ « سر الله أن يحل فيه ملء اللاهوت » . والواقع أن « فيه خلق الكل مافى السماوات وما على الأرض . مايرى وما لا يرى . الكل به وله قد خلق » (٨) فهدف الخليقة هو تمجيد السيد المسيح وفيه تجد كمالها : « الكل به وله » . فالكلمة المتجسد منبع تماسك العالم المخلوق ومبدأوه ، وقد نظم الكون لهدفه .

والخلق والخلاص مرتبطان ارتباطا وثيقا فى فكر بولس الرسول الذى يوضح أن عمل الفداء يرن صداه مباشرة فى الكون . « فالمسيح بكر الخلائق » أى أنه البكر فى الخليقة كلها سواء منها الروحانى والمادى. وهو « الابن الوحيد » الذى سر به الآب « الذى شاء أن يكون ابنه الوحيد الهدف والمركز المطلقين لكل شىء . ولئن كان السيد المسيح قد نزل الى « أقسام الأرض السفلى » فما ذلك الا لكى « يملأ الكل » (٩) . ويقول لنا القديس ايرينيئوس : « بالكلمة المتجسد أصبح الكل تحت التدبير الفدائى . ولقد صلب ابن الله للجميع اذ

---

(٨) كولوسى ١ : ١٦ و١٩ .

(٩) أفسس ٤ : ٩ - ١٠ .

قد رسم علامة الصليب على كل الأشياء » . وهكذا ترتبط الطبيعة كلها بمصير الانسان . ويصف لنا بولس الرسول الانتظار القلق للطبيعة المتوترة فى نظرة الأسفل الى الأعلا : « ان كل الخليقة تئن وتتمخض معا » (١٠) ... وقد بين لنا المرتل هذا التوقع بقوله : « كمثل عيون العبيد الى أيدى مواليهم ... » (١١) على أن آلام الخليقة ليست توجع الاكتئاب بل توجع المخاض .

٥ - الناحية الأخروية للكون :

يقول البطريرك فيلاريت (بطريرك موسكو) : « ان حقيقة الأسفار الالهية تمتد الى أبعد من تفهمنا . فالانسان خلقه الله آخر الكل ليدخله الى الكون بصفته ملكا وكاهنا .. » وهذا المركز الملكى الكهنوتى فى تعليم الآباء يضفى على الكون مسحة كنسية . فالعالم فى نظر القديس مكسيموس « هيكل كونى » يمارس فيه الانسان

---

(١٠) رومية ٨ : ١٩ - ٢٢ .

(١١) مزمور ١٣٢ : ٢ .

عمله الكهنوتى ، وبوصفه كاهن للطبيعة يقدمها لله من داخل نفسه على المذبح » (١٢) ٠

والتقليد الشرقى يعلمنا أن الكنيسة تأسست فى الفردوس اذ كان الله يأتى فى هدوء المساء ليتحدث مع الانسان ٠ وهذا الحديث المتبادل هو الوسيلة الالهية لاصطياد الانسان نحو التأله ٠ انه حديث « الهى ـ انسانى » منذ البداية لأن الحمل مذبوح منذ تأسيس العالم (١٣) ٠ فعملية خلق العالم نابعة من سر الحمل ، والكنيسة هى المكان الحالى الذى تتحقق فيه الوحدة والتواصل مع الله ٠ ويقول لنا اكليمنضس الاسكندرى ان آدم يرمز الى السيد المسيح بينما ترمز حواء الى الكنيسة وهذا هو السبب فى أن الزواج أصبح رمزا للصلة الخفية بين السيد المسيح وبين الكنيسة ٠ وفى التجسد حقق الابن الكلمة المقصد الأزلى لله بتوحيد اللاهوت والناسوت فى أقنومه ٠

---

(١٢) يقول لاهوتى انجليزى معاصر بأن القبطى يذهب الى الكنيسة يأخذ الكون بأسره معه ، ويستدل على ذلك بالصلوات من أجل مختلف الخلائق ـ راجع أواشى النباتات والثمار والأهوية وغيرها فى القداس الالهى ٠

(١٣) ١ بطرس ١ : ١٩ ، الرؤيا ١٣ : ٨ ٠

« فالمسيح - الله - الانسان » أصبح « المسيح - الله - الانسانية » : الكنيسة ٠٠ فالكنيسة هى المركز المعد منذ الأزل للكون لكى « توحد بالمحبة الطبيعة المخلوقة مع الطبيعة اللا مخلوقة ، وتظهر هذه الوحدة بالنعمة الممنوحة لها ٠ وما تنبأت به كنيسة الفردوس أعلنته وحققته كنيسة العنصرة بتساميها على الحدود التى فرضها السقوط٠

وفى داخل الكنيسة تقود الأنشطة التألهة الى الوحدة مع الله ٠ اذن فمن داخل السر المثبت أزليا للكنيسة وعلى ضوء عملها التقديسى يمكن تفحص الطبيعة بأكثر عمق ٠ والكون منادى عليه بأن يدخل الكنيسة فتتحول الأشياء المادية الى أشياء مقدسة وتصبح عناصر التاريخ المقدس ٠

وهذا الاحساس الكونى لمصير الانسان واضح صراحة فى الشرق فيقول لنا مار اسحق السريانى : « ما هو القلب المحب ؟ انه القلب المشتعل حبا لكل الخليقة : للناس بل وللشياطين أيضا ٠٠٠ انه حنان هائل يقبض على القلب فلا يستطيع تحمل أىّ أذى لأقل مخلوق ، انه يصلى حتى من أجل الزحافات اهتزازا بشفقة لا نهائية تستيقظ فى قلوب أولئك الذائبين فى الله » ٠ والانسان

يجمع فى محبتـه الـكون المتفكك ويقدمه للـكنيسة ويفتحه على العمل الشفائى الذى للنعمة ٠

والمعنى الـكتابى للخـلاص ليس قضـائيا وليس حكما صـادرا من محكمـة بل ان معنـاه « العتق » أو اطـلاق الصراح ، أو هو الانقـاذ من خطر ومن مرض ومن الموت ٠ وهذا كله معنـاه اعادة التوازن الحيوى للجسم ٠ ولهـذا فـكلمة « ايمانـك خلصـك » ترادف « ايمانك شفاك » لأن العمليتين عملية واحـدة هى المغفرة الالهيـة ٠ وهـذه العملية تلمس النفس والجسـد فى وحـدتهما وترابطهما ٠ وتنـاغما مع هـذا المفهوم تعلمنـا الـكنيسة أن الاعتراف « طب روحانى » وأن أبا الاعتراف « طبيب روحانى (١٤) ٠ ويعلن لنـا اغنـاطيوس الأنطاكى أن التنـاول القـدس هو

---

(١٤) حـدث منـذ هـدة سنوات أن ذهبت شـابة من شـابات الـكنيسة للدكتور النفسـانى المعـروف ـ الدكتور الجويلى ـ بالاسكندرية ٠ وبعـد الجلسة الأولى قال لها فى صراحـة مدهشـة : « أنت تنتمين الى كنيسـة تؤمن بسر الاعتراف ، لذلك أنصـحك بأن تذهبى الى القمص مينـا اسكندر لأنه سيعالجك روحيـا ونفسيا مجـانا فى حين أننى سأعالجك نفسيا فقط وأتقـاضى منك الأجر » ٠

دواء الخلود · وتترنم كنيستنا بهذه العقيدة عينها قائلة عن سر التناول : « هذا هو خبز الخلود » · والسيد المسيح المخلص هو أيضا الشافى الالهى الذى أتى ليدعو خطاة الى التوبة · والخطاة هم المرضى المهددون بالموت فى أجسامهم وفى أرواحهم · والمعنى الشفائى للخلاص هو شفاء الانسان وتطعيمه ضد ميكروب الفساد والموت : « بالموت داس الموت » ـ وهذه الناحية الجسدية للخلاص تتضمن الانتصار المادى على كل نتائج السقوط ·

٦ ـ كونية مهياة للتقديس :

انه من النبع الالهى الفريد : « كونوا قديسين لأنى أنا قدوس » تنساب سلسلة من التكريسات أو من التقديس بالتشارك · وهذه العملية : عملية اختراق العالم المغلق بفوران من قوى العالم العلوى هى خاصية الأسرار المقدسة ، والمقدسون هم الذين يعلمون أن كل شىء مصيره الى الكمال الليتورجى · فالليتورجيا أبسط أعمال الحياة اليومية : الأكل والشرب ، الغسل ، الحديث ، التصرف ، التواصل · هذه كلها تنسقها الليتورجيا وتعيد لها معناها ومصيرها الحقيقى : هذا المصير هو أنها أجزاء من الهيكل الكونى لمجد الله · فمصير العنصر المائى هو

أن يشترك فى الظهور الالهى (الغطاس) ، والخشب ليتفتح الى صليب ، والأرض لتتلقى جسد الرب ، والحجر لينتهى الى الصخرة المختومة بعد أن وضعت على فم القبر المقدس ودحرجت قبل أن تصل اليها النسوة حاملات الطيب · أما زيت الزيتون والماء فيصبحان عنصرين لتوصيل النعمة الالهية للانسان المتجدد ، والقمح والكرمة يتهيأن الى قمة التحول فى الافخارستيا · فكل شىء يشير الى التجسد وينتهى الى الرب · وقطعة من الكيان تصبح مقرا للظهور الالهى مع أن شيئا لم يتغير أمام العين الجسدية ، أما فى الأعماق بين الفعالية المقدسة وبين هدفها من المادة فيحدث تبادل وتواصل فى طبيعتهما فلا يعود الجسد عائقا منذ اللحظة التى أصبح فيها جسدا روحانيا تبعا لتعبير القديس بولس · ويؤكد لنا غريغوريوس الأرمنى أن « الجسد أيضا عنده خبرة بالأمور الروحية » ·

ولقد مشى السيد المسيح على هذه الأرض وتغنى بزهورها · وفى أمثاله تحدث عن أشياء هذا العالم كرموز للسمائيات · ولم يبق شىء فى هذا العالم غريبا عن ناسوته وبالتالى لم يبق شىء لم ينله ختم الروح القدس · ولهذا السبب تبارك الكنيسة وتقدس بدورها كل المخلوقات ·

وفى يوم الجمعة العظيمة تبارك الجهات الأربع ساعة المطانيات · وبذلك تخضع النظام وتضعه بأسره تحت العلامة المحيية : علامة الصليب الذى لا يقهر · فكل التفتح الروحى مختبىء تحت قناع أمور هذا العالم · والأعمال الالهية غير مرئية ولكنها معلنة حسيا · فالروح القدس يضفى نعمته على مياه المعمودية فتتحول الى مياه حية محيية مجددة · فالماء الآن متحد بالروح القدس الذى يعمل فيه وبه · وهكذا فى باقى الأسرار · وبذلك تصبح المادة الكونيه موصلة للنعمة ووسيلة للانشطة الالهية ·

والليتورجيا ليست مجرد صورة طبق الأصل السماوى ولكنها تفجر السماويات فى التاريخ · فينزل الله ويقدس النفوس ومعها يقدس أيضا كل الطبيعة وكل الفضاء الكونى · ويقول اثناسيوس الرسولى عن المدى الكونى لموت السيد المسيح انه « طهر الأهوية وحرر الكون من السيطرة الشيطانية » ·

وللانسان السلطة لأن يقبض على هذه المقاييس المتسامية ويمدها لتشمل زمنه ونوعه الانسانيين ·

ثانيا ـ المقــــدس :

ان المقــدس هو ـ قبل كل شيء ـ يتعــارض مع عناصر هــذا العــالم : انه تفجر المغاير المطلق المختلف تمــاما عن العــالم · والــكتاب المقــدس يعطينــا الدقة الأساسية : الله وحـــده هو القــــدوس ، انه كلى القــــداسة · وتتناغم الليتورجيــا مع هــذه الدقة فى كلمــــات الــكاهن الخــــديم « القدسات للقــديسين » فيجيبه الشعب : « واحــد هو الآب القــدوس واحد هو الابن القدوس واحد هو الروح القدوس » ـ مؤكدا بهــذه الاجابة أن القــداسة صفة الهية بحتة · أما المخلوق فقــداسته مشتقة من القــداسة الالهية لا من طبيعته الخاصــة · والتعبير العبرى « قادوش » يتضمن صلة الانتماء التــام لله · والعمليـــة التى تؤدى الى القــداسة تســحب الشخص أو الشيء من وسط ظروفه الاختبــارية وتضعه فى تواصل مع اللامدرك مما يغير طبيعته ويؤدى بالمحيطين به الى الشعور المبــاشر « بالسر الأعظم : الى الاضطراب المقــــدس أمام حضرة هذا اللامدرك · وليس هذا بالخوف المجهول ولكنه خوف روحانى يصــاحب كل اســتعلان علوى وكل اشعاعاته الفعــالة خلال وقائع هــذا العــالم · « أرســل هيبتى امامك وأزعج جميع الشعوب الذين تأتى عليهم يقول الرب (١٥) ،

---

(١٥) خروج ٢٣ : ٢٧ ·

وأيضا « اخلع نعلك من رجليك لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة (١٦) · وليس بمستغرب أن يحدث هذا الاضطراب لأن هذا الحدث الفتان يتحقق وسط العناصر الباطلة التى للعالم . فتتجلى حقيقة مذهلة هى أن مخلوقا يصبح الوعاء لحضرة الهية تضفى عليه القداسة فيستريح فيها ويشع بنورها ·

والكنيسة تصبح مكانا مقدسا لأن فيها يلتقى الله بالناس ويتكلم معهم ويعطيهم ذاته طعاما · وقبلة السلام توصف بأنها « قبلة مقدسة » لأنها ختم التواصل مع السيد المسيح الحاضر وسط الناس · والملائكة قديسون لأنهم عائشون فى نور الله فيعكسون هذا النور · وفى العهد الجديد كل من ينال المعمودية يدهن بالميرون أى يختم بالروح القدس وينال المواهب المنسابة منه ، وهذه المواهب تثبت المختوم فى السيد المسيح فتؤهله لأن يصير بها « شريك الطبيعة الالهية » (١٧) · وبهذا التشارك يتقدس - أى يصبح « قديسا » ·

---

(١٦) خروج ٣ : ٥ ·

(١٧) ٢ بطرس ١ : ٤ ·

والانسان قد وهب له أن يكون قديسا بالتطهر لأن قوى العالم العلوى قد لمسته · والكاهن يقبل طرف الكأس : رمز الجنب المطعون بالحربة وهو يقول : « هذه قد لمست شفتى فانزع عنى آثامى وطهرنى من خطاياى » · والانسان عليه من الآن أن يعتاد الحياة فى عالم الله ، فى الأعماق التى تمكنه من أن يتفهم مصيره السماوى فيشيد العالم الى ليتورجيا كونية : الى هيكل لمجد الله ·

والليتورجيا تمهد الى فهم لغة القداسة وتقدم الرموز اللازمة لتفهمها الى العالم · فالرمز : الصليب أو الأيقونة أو الشوريا - يمثل اشتراكا فى السماويات حتى فى تشكيله المادى · وحينما يرسم المؤمن نفسه بعلامة الصليب يؤدى عملا ابتهاليا ، يستلهم الروح القدس ، يستعين بالقوة اللامقهورة التى للصليب · وبمقدرة الصليب الانسيابية يتشكل كيان هذا المؤمن ليتطابق مع الصليب · وبهذه العلامة - علامة المحبة المصلوبة - يسمو الانسان نحو الصليب بوصفه رمزا للثالوث الأقدس فيصبح هو ذاته أيقونة حية لهذه العلامة المقدسة ·

ثالثا - الزمن المقدس :

ان الزمن والفضاء هما ميزان الوجود ، ووظيفتهما هى تنظيم وترتيب الأشياء الى داخل الأشكال الملازمة لكل مخلوق ، والمفهوم الكتابى قد استوعبه القديس أوغسطينوس تماما اذ يؤكد أن العالم والزمن قد خلقا معا : فالعالم لم يخلق فى الزمن ولكنه خلق مع الزمن وهذا معناه أن المبدأ ذاته للزمن مبدأ صالح ، وأن الحياة فى الفردوس وفى ملكوت الله ستوجد فى كمال الزمن - أى فى النظام المتتابع للاحداث الموصلة اليه · فالأبدية ليست انعدام الزمن ولكنها الزمن فى شكله الايجابى : الزمن يحتوى الماضى باكمله والحاضر المفتوح على اللانهاية · اذن وجبت التفرقة بين الزمن السلبى الموبوء الذى للسقوط والزمن المقدس المشترى الموجه الذى للخلاص ·

وأول ما يجب ادراكه هو أننا لا نخضع للزمن ولكننا نعيشه · والزمن المعاش يمثل تفاعلا متهدلا باطنيا بين الشكل الحسابى ومضمونه الوجودى · ولقد عبر القديس أوغسطينوس بشىء من المرح عن أن أجزاء الزمن الثلاثة لا وجود لها : فالمستقبل لم يوجد بعد ، والحاضر لحظة عابرة لا يمكن الامساك بها ، والماضى انتهى وتلاشى · والزمن فى شكله الحالى مرتب تبعا للمواسم الكونية : انه الزمن

الدورى للكواكب تترجمه ساعاتنا بدورانها المتكرر الذى لا يصل الى اية جهة · ولهذا يقول كاتب « الجامعة » : « لا جديد تحت الشمس » · ومن الممكن أن نوقف الساعة ولكن لا يمكن اطلاقا ايقاف الزمن : انه سائر فى عناد نحو الدينونة ·

وفى السيد المسيح يجد الزمن محوره · فقبل مجيئه كان التاريخ يتجه نحوه متهيأ للمسيا وممتدا اليه ، كان زمن الحمل والانتظار والتوقع · وبعد التجسد تحول كل شىء الى الباطنية : الى الملىء والفارغ · فيحدثنا القديس اغناطيوس بأن ما يميز المسيحيين هو أنهم أصبحوا « لابسى الله » ممتلئين من الله · والسيد المسيح لم يلغ الزمن ولكنه كسر استمراره التاريخى بأن فتحه على الأبدية · ويقول لنا القديس لوقا ان « الصبى كان ينمو ويتقوى » ، ولكن لكونه الكلمة المتجسد فالانسان لا يبلغ اليه الا بالايمان لا بالزمن · ولعيون الايمان فقط يتفتح الزمن التاريخى على الزمن المقدس : على سلسلة مغايرة تماما للاحداث ـ الميلاد المعجزى ، التجلى ، الصعود ، العنصرة · وفى هذا يقول القديس ايرينيئوس : « لقد جعل الله ذاته فينا مستهدفا جعلنا نحن البشر الزمنيين أبديين » · وبهذه الكلمات يشير الى أن الزمنى ينتهى الى الأبدى « منذ الآن هنا » ·

اذن فالسيد المسيح لا يهدم الزمن ولكنه يكمله ويعيد تقييمه ويشتريه · فالأحداث الحيوية لا تتبخر بل تظل محفوظة فى ذاكرة الله : ففى صلاة الموتى نطلب الى الله أن « يذكرهم » · فالزمن الايجابى يوضح للانسان أن الأبدية ليست غياب الزمن ولكنها ملؤه · والعرس السماوى سيجمع ابراهيم واسحق ويعقوب مع الناس من جميع العصور · والزمن التاريخى فى جوهره ليس سلبيا كله بل يحتوى على عنصر ايجابى · وهذه الايجابية اشبه بعلاج المرض بواسطة ميكروبه الخاص كالتطعيم ضد الجدرى مثلا· وهى أيضا نوع من قطع الطريق على التتالى والرجوع الى البداية بأمانة الأخطاء السابقة وبداية « الحياة » عملا بقول السيد المسيح له المجد : « أما أنت فدع الموتى يدفنون موتاهم وتعال اتبعنى (١٨) · وهذا ما يتم شعائريا لكل مسيحى بولادته ولادة ثانية (١٩) ·

ويفسر لنا غريغوريوس النيسى ما فى الزمن من سلبية وايجابية فيقول انه « عملية نمو وعملية تحلل فى آن واحد »

---

(١٨) متى ٨ : ٢٢ ·
(١٩) يوحنا ٣ : ٣ ·

والخلاص هو فى شق المستويات : فالمعمودية تعترض قيد الخطية فنحطمه لنضع مكانه المولود الجديد ، ومقابل الموت وضع الله نظام الحياة الأبدية وهذا هو بالضبط ما أوضحه بولس الرسول فى مقابلته بين آدم القديم وآدم الجديد : بين النفس الحية والروح المحيية · والماضى الثقيل ألغى بالمعمودية والتوبة ، والدهر الآتى حاضر فى الافخارستيا · وهكذا نعيش منذ الآن زمن الخلاص · والليتورجيا التى نصليها الآن صورة للسماويات - اذن فحين نصليها نكون فى السماء · فليس هناك سوى عشاء سرى واحد مستمر من العلية وممتد الى كل افخار ستيا فى كل كنيسة وكل جيل · والتكرار لا وجود له الا من ناحية الانسان الذى يتواصل من وقت الى آخر مع ما هو كائن باستمرار · وفى هذا المعنى يقول مار افرام السريانى : « لقد خلق الله سماء جديدة لأن الخطاة كانوا قد عبدوا الأجرام السماوية ، وخلق أرضا جديدة عوضا عن الأرض التى كان آدم قد شانها ، وشاد خليقة جديدة بلعابه » · وهذه الكلمات الأخيرة تعود بنا الى أعجوبة شفاء المولود أعمى وتعطينا بها اشارة الى « شفاء الزمن الأعمى » · وبالطبع هذا لا يعنى خليقة جديدة بالمعنى الأصيل بل يعنى

تجـديد القـديم : السماء والأرض والزمن على حـد تعبير المزمور « يتجدد مثل النسر شبابك » (٢٠) ٠

ويوم الأحد فى نظر الآباء لا يحل محل السبت اليهودى٠ فالسبت هو اليوم السابع أما الأحـد فينشىء اليوم الثـامن أو بالحرى اليوم الأول بالمعنى الفريد المطلق ٠ فان كانت أيام الأسـبوع الـكونى الملفوف حول نفسـه مؤلفـا التـاريخ بأكمله ، فيوم القيـامة ـ يوم الأحـد ـ هو اليوم الثـامن : الفصح الأسـبوعى صـورة الأبدية ٠ ويقول أوريجانوس انه بالنسبة للـكاملين كل يوم هو يوم أحـد ولقـد سن الآباء عدم الركوع أثنـاء الخمسين ـ من القيـامة الى العنصرة ـ لأنها أيام فرح اذ هى أيام الدهر الآتى منذ الآن ٠

والـكنيسة فى رؤيا « الراعى » لهرماس أبدية الشباب لأن كيانهـا المزدهر ليس فى متنـاول الزمن ٠ وتتـابع الأعياد وتذكارات القـديسين تقييم كل كسر من فترات الزمن ويجعل منه زمنا مقدسا فيردد صدى حنيننا الى الأبدية ٠

---

(٢٠) مزمور ١٠٣ : ٥ ٠

رابعا ـ الفضـــاء المقـدس :

ان الفضـــاء العالمى خاضع لقانون تحـــديد اللامألوف المنظم للـكائنات أما الفضـــاء المقـــدس فهو أكثر من وحـدة التعـايش : انه يجعل الفرد واحدا فى السيد المسيح · وحينما قال له المجـد للمرأة السامرية « تأتى ساعة لا فى هذا الجبل ولا فى أورشليم تسجدون للآب » (٢١) · كان يتحدث عن نفسه بوصـفه المـكان المقـدس الحـاضر أبدا الذى يلغى كل تفرقة بين مكان وآخر · وبهذا أصبحت كل زيارة لـكنيسة حجـا لـمكان مقدس ، وكل من هـذه الأماكن المقـدسة مركز كونى ، وهى ليست فى موقع أفقى بل هى فى موقع عامودى يوحـد كل نقطة بالعـالم الآتى · وانطـلاقا من الحضرة الأبدية فى الـكنيسة يتحقق تقـديس الزيت والقمح والخبز والخمر على كل وجـه الأرض ، كمـا تتقـدس الجهـات الأربع يوم الجمعة العظيمـة ·

وهذه الأماكن المحورية هى النقطة التى تتواصل فيهـا كل المستويات : ما تحت الأرض · الأرض · السماء ، ورموزها هى الجبل المقـدس · الشجرة الـكونية · العـامود الأساسى·

---

(٢١) يوحنـا ٤ : ٢١ ·

السلم · ولهذا السبب فكلمة « تابور » فى العبرية معناها « الصرة » : صرة العالم · ويقول التقليد المسيحى ان الجلجثة هى « صرة » العالم لأنه هناك خلق آدم وهناك رفع الصليب ، وعند قدمى الصليب كان قبر آدم · وعلى هذا النمط تنزل جذور الشجرة الكونية الى الجحيم بينما يمس رأسها السماء ، وترمز فروعها الى مختلف المستويات السماوية (فيولس صعد الى السماوات الثالثة) · ويعلمنا أوريجانوس بأن « الأسفار الالهية تصف لنا السيد المسيح كشجرة » ثم يعلق على ذلك بقوله : « كان ينبغى أن يدفن آدم حيث سيصلب المسيح » · بينما تهتف الكنيسة : « ان شجرة الحياة المغروسة فوق الجلجثة قد ارتفعت وسط الأرض وهى تقدس حتى أقصى أطراف الكون ··· ان طول الصليب وعرضه يمتدان الى أبعد من السماء » ونحن ـ فى الوقت عينه ـ نقرأ فى الكتابات النسكية بأن الانسان الروحانى يعكس صورة السيد المسيح بكونه عامود نارى يصل السماء بالأرض ·

والدائرة هى الشكل الرمزى للابدية · والصلوات الجماعية تصعد على هيئة دائرة حول الكون فتضع الانسان ضمن سلطانها الرعائى · وهذا هو المعنى المقصود من كل موكب ليتورجى : انه يرسم صورة الأبدية ويضفى

على الفضاء قيمة قدسية . ولئن كان الرمز المقدس تجاوبا للحنين العميق الى الأبدية ، فالفضاء المقدس استجابة للتعطش الى الفردوس المفقود ، وفى هذا الامتداد الى مايعلو على الاختبارات الناتج عن التقديس يستعيد الانسان جزئيا مصيره الأصلى ويتجه نحو تحقيقه .

خامسا ـ الهيكل :

(أ) المشروع الالهى والأصل السماوى للهيكل :

« ان الهيكل هو سماء أرضية ، وفى فضائه السماوى يعيش الله ويتمشى مع شعبه » . وهذه الكلمات يعلنها لنا الآباء فيوضحوا لنا أن للهيكل سرا وأن الفن المقدس مركز دائما على الله . اذن فالمعماريون المعاصرون عليهم أن يتعلموا كيف يميزوا معنى اقتراح المهندس الرئيسى الذى هو ملاك الكنيسة . والمهندس الملائكى لا يقيس « المدينة وأبوابها وسورها » (٢٢) فقط بل يوحى أيضا الى الفنانين بطريقة رسم أيقوناتهم . لهذا يقول تقليد كنسى بأن هناك أيقونات رسمها الملائكة .

---

(٢٢) رؤيا ٢١ : ١٥ .

والواقع هو أن الهياكل فى العهد القديم كانت تبنى تبعا لتوجيهات الله نفسه مثل تابوت العهد والمسكن الذى اقامه موسى وهيكل سليمان (٢٣) · فالله نفسه قد صمم المكان حيث تقام الشعائر · انه المعمارى الأكبر والمهندس الأصيل للعالم كله · فالمربع يرمز الى اللامتزعزع اللامتغير، والمواكب داخل هذا المربع هى الديناميكية الدائرية بكل ما تتضمنه من شعائر وأسرار · والمنارات عامودية لأنها تتجه اتجاه الصلوات المرتفعة نحو العرش مع البخور المتصاعد ، وهى أيضا رمز ليدى الكاهن المرتفعة الى فوق · وهذه كلها فى جملتها ترسم لنا تطلع الأرض نحو السماء ·

---

(٢٣) خروج ٢٥ : ٨ ـ ٩ واصحاحى ٣٥ و٣٦ ، أخبار الأيام ٢٨ : ١ ـ ١٩ ، ويلاحظ أن الله حين أعطى موسى ثم داود توصياته عن كيفية بناء الهيكل ومحتوياته **لم يشر اطلاقا الى أية آلة موسيقية** · لذلك فحينما أوصل داود الارشاد الالهى الى ابنه سليمان عن بناء الهيكل لم يشر هو أيضا الى أية آلة موسيقية رغم ما قاله فى المزمور الـ ١٥٠ ، وكذلك طالب الشمس والقمر الخ بالتسبيح فى المزمور ١٤٨ ، فهو فى المزمورين انما يعلن بأن كل مافى الوجود يقدم التسبيح واستخدم الآلات رمزا لهذا العمل ·

(ب) الشكل والمضمون المتسامى :

ان الهيكل تصوير للعالم : عمل الله · وهو أيضا يترجم لنا حضرة المتسامى : « انه بيت الله وباب السماء » (٢٤) ولقد خلق الله كل شيء بالعدد والوزن والمقياس ، وهكذا أقام من « الخرب الخالى » كونا منظما: خلق الجمال · والرؤية المسيحية للجمال تتجه نحو الديناميكية الباطنية ، نحو الاحساس بالالهيات فى اللانهائى - لأن جمال الله غير مدرك يعلو على أى وزن ويفوق كل تنظيم · ولقد كانت الكتدرائيات القديمة مشحونة بقوة وبكثافة تسموان على الطبيعة ، وديناميكيتها تحبس الأنفاس الى الآن وتملأ القلب نشوة · وتنبع هذه الديناميكية مما تجسده من أعماق خفية وارتفاعات لا محدودة · والصليب الذى يعلو المنارة بخطوطه الأفقية - العامودية يوحى لنا بحركة التنازل الالهية ، فاذا مددنا خطوط الصليب الى اللانهائية سندرك أن جماله الهندسى شاهد على اللانهائية الحاضرة · أما استدارة القبة فتجمع كل الناس فى تكامل - فى وحدة الجسد · ونحن نحس تحت القبة بأننا فى مأمن : اننا فى حمى المخلص ·

---

(٢٤) تكوين ٢٨ : ١٧ ·

(د) الهيكل صورة الملكوت ونداء الله :

ان الهيكل ليس مجرد مبنى معمارى يعترض تجمع المنازل بل انه بالحرى الصورة الملموسة لسماء خفية هى ملكوت السماوات · وهو يهيب بجميع الناس بالحاح أن يكونوا « حجارة حية » فى الهيكل الكونى حيث « كل نسمة تسبح اسم الرب » · ومما يرويه التاريخ أن قديسا عظيما اسمه سيرج دى رادوينج بنى كنيسة باسم الثالث الأقدس فى عصر سادته الحروب والمخاصمات · ويقول كاتب سيرته بأنه « اقام هيكل الثالوث الأقدس كمرآة يرى فيها الناس « كل ذلك الآخر » ، مستهدفا مقاومة المنازعات والانشقاقات العالمية · وهذا الهدف هو ما أراده رب المجد : لقد شاء أن يصل بالعالم الى التجلى بالصورة الفائقة التى للثالوث الأقدس ·

والمتفرج على هيكل يمكنه فحص أجزائه ونوع معماريته ومدى جماله الهندسى · ولكن الهيكل يظل بالنسبة له كتابا مغلقا · ولكى يبدأ حجر يتكلم ، ولكى يتحول كل مافى الهيكل الى ترنيمة وليتورجيا يتحتم على المتفرج أن يلمح الحياة السرية للهيكل والمبدأ الأساسى المقصود منه · والشعائر الدينية المخصصة لتكريس الكنائس تعبر بحرارة

عن تكريس فضائلها لما هو مقدس . والمعنى اللغوى لكل مذبح هو « المكان العالى » : فهنا الجبل المقدس - جبل صهيون و « الرب أشرف من علو قدسه » (٢٥) وكل التعبيرات الكتابية تؤكد لنا أن المكان الذى تقدس بالشعائر فأصبح كنيسة هو قطعة من العالم السماوى . ويوضح لنا الأنبا ديونيسيوس (٢٦) هذه الحقيقة فيقول لنا عن الشعائر : « انه على السيد المسيح نفسه بوصفه المذبح يتم التكريس » وفى الشعائر الخاصة برسامة الكاهن يركع الشخص المهيأ للرسامة ويسند جبهته الى المذبح (رمز السيد المسيح) . واستناد الكاهن صورة ليوحنا الحبيب وهو متكىء على حضن ربه ساعة العشاء السرى (٢٧) .

ويصف الأب بولجاكوف ساعة رسامته فيشبهها بالعبور اللامنطوق به : عبوره خلال « المسيح - النار » ، ثم يستكمل

---

(٢٥) مزمور ١٠٢ : ١٩ .

(٢٦) البابا الاسكندرى الـ ١٤ - راجع سيرته فى « قصة الكنيسة القبطية » حـ١ ، الفصل المعنون « معلم مسكونى » .

(٢٧) يوحنا ١٣ : ٢٣ .

بقوله « ان اللحظة الأعمق فتنـــة هى تلك التى أدخلونى فيها الى الهيكل نحو المـذبح · لقـد اجتزت بالفعـــل حاجز نار ملتهبـة مضـيئة محييـــة · لقد دخلت عالمـا جـــديدا هـو الملـكوت » ·

وهكـــذا نحس داخـل كل كنيسة ـ حتى خارج أوقات الشعائر ـ احساسا قويا بالحيـاة اللامنقطعة ، لأن كل مافيها فى حالة توقع ممتد نحو الملـكوت · وهذا التوقـــع يسطع بحضرة القـادى وحضرة محبيه معـه : انه الخدمة الليتورجية للأيقونة ·

القسم الثالث

ثيئولوجية الأيقونة

أولا - الانتقال من الاشارات الى الرموز :

كان الفن فى بداية المسيحية مجرد اشارات تستهدف التعليم معلنة الخلاص باقتفاء آثاره . ويمكن تقسيم هذه الاشارات الى ثلاثة أقسام :

١ - كل ما يتعلق بالماء كفلك نوح ويونان وموسى والأسماك والهلب .

٢ - كل ما يتعلق بالخبز والخمر كاشباع الآلاف وسنابل الحقل والكرمة .

٣ - كل ما يتعلق بالخلاص وبمن حصلوا عليه كالفتية الثلاثة فى أتون النار ودانيال فى جب الأسود ولعازر المقام من الموت . وكانت هذه الرسومات تشير الى العمل الفدائى . وكلها تلتقى عند محور واحد هو أنه لاحياة أبدية بعيدا عن السيد المسيح وعن أسراره المقدسة .

وهى مع بساطتها تعبر عن فرح عميق لأن قيامة الموتى منقوشة على التوابيت فى كلمة « آكلة الجسد » ٠

ولقد تحولت هذه الاشارات ذات الدلالة العميقة الى رموز متسامية : الى الأيقونة ٠ انه الفن وجد قيامته فى السيد المسيح فأصبح أيقونة ٠ والأيقونة هى مركز ساطع لحضرة قدسية ورؤيا ليتورجية أصبحت صورة ٠

والكلمة المنطوق بها والمصغى اليها موجودة فى الأسفار الالهية ، فاذا ماشيدت ونحتت أصبحت كنيسة ، ومتى ترنم بها المؤمنون وتمثلوها أصبحت ليتورجيا ، ثم حينما يتفهمها الفنان سريا ويقدمها للمتأملين فى رموز مطلة على السماء يؤلف منها « ليتورجيا رؤياوية » فى شكل أيقونة ٠

ثانيا ـ الأيقونة والليتورجيا :

ان الأشكال المعمارية للكنيسة ، والأعمدة والأيقونات وغيرها من الأدوات الخاصة بالعبادة ليست مجرد مجموعة منظمة كما هو الحال فى المتاحف ٠ انها أعضاء جسد واحد تعيش العيشة الروحانية الواحدة ٠ انها متكاملة ضمن السر الليتورجى ٠ ولا يمكن تفهم الأيقونة تماما خارج

هذا التكامل · والتأمل التضرعى بتجاوز الأيقونة ولا يقف الا عند المضمون الحى الذى تترجمه · فالأيقونة فى وظيفتها الليتورجية هى ترابط بين الحس والحضرة : انها تقدس الزمن وتقدس المكان · وبتفحصها نجد أنها تحول المسكن الى « كنيسة بيتية » كما تحول حياة المؤمن الى حياة الصلاة والليتورجيا الباطنية المستمرة · وكل من يخطو داخل كنيسة أرثوذكسية ينذهل أمام الاحساس القوى الذى يداخله بحياة غامرة متدفقة ·

والأيقونة تعطى الابصار خلال الليتورجيا لوظيفة ايقونوغرافية هى تصوير بالالوان لكل تدبير الخلاص · وخلال التسبحة الشاروبيمية : « نحن الذين نمثل الشاروبيم سريا ونسبح الثالوث المحى المقدس نتخطى الأرضيات ونشترك باطنيا فى الليتورجيا الأبدية التى يحتفى بها السيد المسيح نفسه فى السماء (١) وأيقونة « التجمع العظيم » (٢) تصور لنا مجمع الملائكة المتلئين أعينا ذوى الاجنحه الهامسة ، وهم يحيطون برب المجد الكاهن الأعظم · وبذلك يسطع مجد انجيل يسوع المسيح فى أعين المؤمنين ·

---

(١) عن احدى صلوات الليتورجيا الروسية ·
(٢) الذى كتب لنا عنه يوحنا فى سفر الرؤيا ·

والأمناء لفاديهم يمثلون سريا الملائكة،وهم أيقونات حية،مقر الظهور الملائكى للخدمة السمائية من التعبد والضراعة ٠ وكل شيء تشارك وتقدمة وحضرة وافخارستيا : « نقدم لك من الذى لك ٠٠٠ » وفى هذه السيمفونية الرائعة يرى كل مؤمن فى الأيقونات زملاءه الكبار : البطاركة والرسل والشهداء والقديسين بوصفهم حاضرين معه يتشاركون واياه الأسرار القدسية ٠ ويهتف المؤمن ـ بوصفه شريك الملائكة فى الخدمة الليتورجية ـ « فى أيقوناتكم المقدسة نتأمل المساكن السماوية ونتهلل بفرح لا يوصف » ٠

ثالثا ـ تيئولوجية الحضرة :

ان كاتب سيرة القديس يوحنا البشير يقدم نصيحة لها قيمتها اذ يقول : « لكى تتفهم الأيقونوغرافية ولكى تتفهم الأيقونة استشفع بالقديس يوحنا ٠٠٠ » اذن فالوحى الذى يستلهمه البشيرون والذى يستلهمه الأيقونيون وان كان غير متطابق الا أنه يتقارب على مستوى استعلانات السر ٠ وفى احدى استشفاعات الأنبا ديونيسيوس بالثيؤتوكس يقول : « اننى أشتاق أن تنعكس صورتك بلا انقطاع داخل مرآة النفوس لتحفظها طاهرة فترفع أولئك الذين هم منحنون الأرض ، وتمنح الأمل لأولئك الذين يتأملون ويحاولون التشبه بنموذج جمالك » ٠

ونقولها صراحة : ان الأيقونة لدى الشرقيين هى احدى المقدسات أو بتعبير أدق هى مركز حضرة شخصية · وصلوات المساء الخاصة بعيد السيدة العذراء لفلاديمير توضح هذه الحقيقة اذ يقال فيها : « عندما أتمعن أيقونتك تقولين لى بسلطان : ان نعمتى وقوتى مع هذه الصورة » · وهذا هو السبب فى تحتيم شفاعة كاهن وفى اقامة الشعائر الخاصة لوضع الأيقونة داخل وظيفتها الليتورجية وبالتالى فى خدمتها الناتجة عن كونها « استعلانا للحضرة » · والصورة التى تحقق لكاهن من صحتها العقيدية وانسجامها مع التقليد والمستوى الفنى التعبيرى (٣) تتحول استجابة للصلوات الى « أيقونة معجزية » · ومعجزية هنا معناها « مشحونة بالحضرة » و « المجرى للنعمة والفضيلة الموصلتين للقداسة » · فما يقوله لنا الانجيل بالكلام تقوله لنا الأيقونة بالألوان وتجعله حاضرا · وفى هذا

---

(٣) هنا واجب موضوع على الآباء الكهنة هو أن يتحققوا من مطابقة الأيقونة للعقيدة الأرثوذكسية فلا يقبلونها ولا يوافقون على وجودها داخل الكنيسة الا بعد هذا التحقق - وذلك لكى تؤدى الأيقونة الهدف المقصود منها منذ البداية · وهذا الهدف هو أنها نافذة على السماء ووسيلة تعليمية روحية ·

الصدد يقول يوحنا الدمشقى : « حينما تعذبنى أفكارى وتمنعنى من تذوق القراءة أذهب الى الكنيسة فتنأسر عيناى وتحملان نفسى على تسبيح الله · فأتمعن بسالة الشهيد وتلهبنى حماسته وأخر على ركبتى لأعبد الله وأصلى مستشفعا بالشهيد ··· فالأيقونة تشهد بحضرته وبالتالى تعبر عن خدمتها الشفاعية التواصلية · وهى تترجم الحضرة بنشاط يشع من مركز كثافتها » ·

فالفن المقدس - فن الأيقونة - يعلو على المستوى الانفعالى · والأيقونة بخدمتها الليتورجية لا تستثير الانفعالات بل تستثير الاحساس الروحانى · والمتأملها فى خشوع يستولى عليه استعلان متفجر يدفعه الى التعبد والصلاة ، ويعلمنا القديس دوروثيئوس بأن على الأيقونوغرافى أن يتدرب على « صوم العينين » لكى تتطابق رؤيته مع رؤية الكنيسة فتصبح أيقوناته وسيلة للوعظ وللتعبير الصادق عن العقيدة ·

رابعا - ثيئولوجية « النور - المجد » :

ان الرب قد تزين بالجلال ولبس الجمال · والانسان فى انبهاره يتأمل المجد الذى يجعل النور ينبعث من قلب كل مخلوق ترنيما وتسبيحا · لهذا فاحدى الذوكصولوجيات

تقول : « ... ليمتلئوا من الروح القــدس لــكى يهتفوا نحوك بتمجيد قائلين : ليكن لك التسبيح والتمجيد الى الأبد أيها الرب الاله » . والايقونة ذوكصولوجية على هذا المثال - انها تتألق نورا وبهجة وتترنم بأسلوبهــا الخــاص بمجد الله . والجمــال الحق ليس فى حاجة الى برهان . لذلك فالأيقونة لا تبرهن ولــكنها تعلن صراحة أن الجمال والصلاح مجتمعان فى الحق ، أو بعبــارة أخرى أدق تعلن أن الجمال والصلاح والحق لا وجود لها الا فى الله .

ويعلمنا بولس الرســول بصراحته الدامغة أن السيد المسيح « هو صــورة الله غير المنظور » (٤) ، وهو بهــذه الــكلمات يوضح لنــا أن الناسوت المرئى للمسيح هو صورة لاهوته غير المرئى . وهكذا نرى أن أيقونة يسوع هى صورة الله والانسان فى آن واحد : أيقونة المسيح فى شموليتــه « الله - الانسان » . وهذه الوظيفة الــكاشفة التى لناسوت السيد المسيح تصبح الحقيقة لــكل انسان . أى أن الانسان ليس على حقيقتــه الا بمقــدار ما يعكس من السماويات . وهذا هو العجب : عجب النعمة الموهوبة الصانعة من الانسان

---

(٤) كولوسى ١ : ١٥ .

المخلوق مرآة للامخلوق « صورة الله » . وتردد احدى الصلوات هذه الحقيقة العجيبة : « باستعادة الصورة التى اتسخت الى كرامتها الأولى وحد الكلمة المتجسد الانسان بالجمال الالهى ، ونحن اذ نعترف بالخلاص نعبر عن هذا العمل الالهى عملا وقولا » . ومن هنا نرى أن سر الخلاص يفوق بكثير مجرد ترميم الصورة الآدمية . لأن السيد المسيح قد حقق الصورة وكملها بملئها ، ثم بعد أن طهرها جعلها شريكة فى الجمال الالهى .

ونعود الى بولس الرسول مرة أخرى لنسمعه يقول : « ونحن ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف كما فى مرآة (التى هى على وجه المسيح) نتغير الى تلك الصورة عينها (الأيقونة) من مجد الى مجد » (٥) . وتتجاوب الكنيسة مع هذه الكلمات فتهتف : « ان نورك يسطع على وجوه قديسيك » (٦) . والانسان يعترف بالخلاص بلسانه ولكنه

---

(٥) ٢ كورنثوس ٣ : ١٨ و ٤:٦ .

(٦) من اختباراتى البهيجة انى كنت أرى نور الله يسطع على وجه الأنبا كيرلس (مطران الحبشة من سنة ١٩٢٩ - سنة ١٩٥٠) حين كنت أذهب لنوال بركته بعد أن يكون قد صلى صلاة الغروب .

يشهد أيضا بالعمل فى تحوله الى « شبيه جدا » · ومن المؤكد أن أيقونة الله الأكثر اختراقا من أية أيقونة أخرى هى الانسان الذى « تغير الى تلك الصورة عينها » على حد تعبير بولس الرسول · والكاهن ـ أثناء الشعائر ـ بعد أن يبخر أمام الأيقونات يبخر الشعب · وهو بهذا العمل يبخر لصورة الله داخل الانسان : انه يبخر الانسان بوصفه الأيقونة الحية لله · ويذكر ديديموس (٧) جملة تناقلها الآباء شفويا عن السيد المسيح وهى : « بعد الله أبصر الله فى كل انسان » · وهذا المفهوم الأيقونوغرافى للانسان يوضحه لنا القديس باسيليوس الكبير معلنا أنه المصير الذى شاءه الله للانسان حين خلقه · ثم يستكمل قائلا : « ان الانسان قد تلقى الأمر بأن يتأله بالنعمة لأنه مادام قد اقترب من النور ستتحول نفسه الى نور » · والانسان بعد المعمودية يلبس ثوبا أبيض تشبها بثوب السيد المسيح ساعة التجلى « وصارت ثيابه تلمع بيضاء جدا كالثلج » (٨) ·

---

(٧) من كبار مديرى مدرسة الاسكندرية ويلقب بالأعمى البصير ـ راجع سيرته فى قصة الكنيسة القبطية حـ ١ ص ٢٥٠ ـ ٢٥٦ ·

(٨) مرقس ٩ : ٣ ـ وهنا أيضا يتناسى المتسرعون الى تقديم صورهم للكنائس هذا النص الصريح ·

والوجود فى حالة تاله عند الشرقى هو تأمل النـــور اللامخلوق تأملا يجعله يتســـــرب داخل النفس ويتخللها وبمعنى أدق أن تعكس النفس من أعمـاقها سر التجسـد ، فيقول القـــديس مكسيموس : « ان النفس توحـــد بالحب الطبيعـــة المخلوقة والطبيعـــة اللامخلوقة بجعلهما تظهران فى وحدة بفعل النعمـة » (٩) · وهـذا هو السبب فى أن التجلى ـ الذى هو اسمى تفجر للنور الالهى ـ له أهميـة عظمى فى الحيـاة الروحانيـة الأرثوذكسية · فالشبيه يرى الشبيه . والعين لا تلمح فقط ولـكنها تشع أيضا : فالرؤية هى فى الوقت عينـــه امتداد النظر أى امتـــداد النور · والأيقونة تكشف للجميع عن هذا النور ، فهى اذن شـعاع من « اليوم الثامن » ـ شعاع اليوم الذى لا غروب له معلنا من الآن ·

ونحن ناظرين وجه الرب كما فى مرآة : ان الأيقونة هى هـذه المرآة اذ تسطع بالنور الـذى هو الصفة العظمى للمجـد · والنور الذى سطع فى بدء الخليقـة كان سـابقا عليها تبعا لتعليم الكليمنضس الاسكندرى اذ يقول : «هذا كان

---

(٩) عبرانيين ١١ : ١ ·

نور الكلمة الالهى الذى ينير كل المخلوقات مختبئا وبه ظهرت كل المخلوقات فى الوجود » . بينما يرى أوسابيوس (أبو التاريخ الكنسى) فى اليوم الأول النور الالهى الذى يضىء الخليقة من البداية وفى تطورها ، ويرتبط الأحد الأول فى ذهنه بالأحد الأخير المنصوص عنه فى سفر الرؤيا حينما يصير الله - النور الكل وفى الكل . وهكذا يمكننا القول ان نور اليوم الأول كان المدخل الى نور التجلى، وانه فى هذا العنصر الضوئى خلق الله بنور متصاعد على مدة ستة أيام الكائن الكونى الذى هو الانسان .

وانسياب العنصر الفنى داخل التأمل الروحانى يمهد الى ثيولوجيا رؤيوية . والرؤية هنا معناها الايمان كما عبر عنه بولس الرسول بأنه « الايقان بأمور لاترى » . والأيقونة تخاطب عين الروح منادية عليها بالتأمل فى « الأجسام الروحانية » وهى تؤدى اختباراتها على اللامرئى ، على « الشكل الداخلى » للكيان ، وهذه الباطنية منبعثة من نور التجلى . ان الأيقونة صلاة تطهر وتشكل الى صورتها ذاك الذى يتأملها فى خشوع . انها سر يعلن بأن هناك صمتا مأهولا وفرحا سماويا على الأرض ، وانبثاقا للنور الأبدى هنا من الآن .

خامسا - الأساس الكتابى للأيقونة :

فى العهد القديم كانت الأرواح فى العالم السماوى المهيأ لخدمة الانسان لا تجد تعبيرا فنيا يكمل لها خدمتها الا فى تابوت العهد وقد نحت على ناحيتيه الكاروبان . وهذا التابوت بما يحويه وبما فوقه كان موضوعا فى قدس الاقداس . ووجوده فى ذلك المكان لا يعبر الا عن خدمة ليتورجية فهو اذن ليس لخدمة الفن . وهذا كان المخلص لكل فلسفة الفن المقدس .

أما فى الأرثوذكسية فقد تخيرت الكنيسة فى « عيد الأيقونة » للقراءة قطعتين هما متى ١٨ : ١٠ ويوحنا ١ : ٤٣ - ٥١ . ومن خلال هذه القراءة تعلم أن الملائكة موهوب لهم أن يتأملوا النور الالهى وأنه بعد التجسد حصل المؤمنون على هذه الهبة الملائكية التى تعبر عنها الأيقونة بكل وضوح .

والسيد المسيح ينجى الناس من كل أسطورة وكل صنم ، انه لاينجيهم سلبيا بالغاء الصورة ولكنه ينجيهم ايجابيا بالكشف عن الوجه الحقيقى لله . ولئن كان اللاهوت منفردا لا يمكن تصويره اطلاقا ، ولئن كان الناسوت

منفردا منفصلا عن الالهى لا قيمة له ، فان « ناسوت السيد المسيح هو أيقونة لاهوته » · والابن الوحيد السيد المسيح بكليته هو البهاء والختم ورسم الجوهر والأيقونة الفريدة لله · فالناسوت مؤكد فى وظيفته الأيقونية : الصورة المرئية للامرئى · وأساسه الكتابى يرجع الى البدء حينما خلق الله الانسان على صورته · صحيح ان السقوط اعترض هذه الصورة ولكن تحقق ملؤها فى السيد المسيح بابرازها فى أولئك الذين « يتصور المسيح فيهم » (١٠) · ويعلمنا الآباء أن الله نحت وجه الانسان وهو يبصر بحكمته ناسوت السيد المسيح · فيعلن لنا أثناسيوس الرسولى : « ان الله خلق العالم لكى يتأنس ولكى يحول الانسان بنعمته الى اله » · فالتجسد مبادرة من الله ورغبة منه فى أن يكون انسانا لكى يجعل من الانسانية ظهورا الهيا وأيقونة حية لحضرته ·

وأيقونات القديسين تمكن الناظر اليها من أن يرى فيهم شخصيات مستنيرة بنور اليوم الثامن · والمؤمنون اذ يقفون أمامها يشبهون التلاميذ على جبل التجلى · ولقد استطاع التلاميذ أن يبصروا التجلى لأن عيونهم أصبحت

---

(١٠) غلاطية ٤ : ١٩ ·

متجلية · ولئن أظهرت الأيقونة ناسوت السيد المسيح فانما تظهره بوصفه ممثلا للطبيعة الانسانية · وهذا هو السبب فى تعدد أشكال الأيقونات الخاصة به · ويثبت من هذا التعدد أن الأيقونى يستهدف الروحيات من رسمه · ويقول يوحنا الدمشقى : « ان الأيقونة تتقدس باسم الله وبأسماء أصدقاء الله - القديسين - وهى لذلك تنال نعمة الروح القدس » ·

سادسا - الأساس العقيدى للأيقونة :

لو أن كل فن جدير بهذا الاسم لم يحاول مطلقا أن ينقل الواقع بل تطلع الى ابراز معناه والى تفهم رسالته الخفية والى الامساك بعمقه وبتفسير الدعوة العليا التى تحركه - فالأيقونة فن أصيل · وهى فى ذرواتها تصل مباشرة الى العلم الروحى · ولهذا السبب يعتبر يوحنا الدمشقى أن الروح القدس حاضر فى الأيقونة ·

وعملية التقديس التى للروح القدس تكييف كل عمل يتخذ فيه الروحى جسدا ، انها تعلن ظهور السيد المسيح لنا وفينا · فهكذا رف الروح منذ الأزل على الغمر وبفعاليته أوجد الله العالم · والروح القدس حل على

السيدة العذراء وجعل منها « الثيئوتوكس » ، وهو يكشف لنا أن السيد المسيح هو « الحمل المذبوح منذ تأسيس العالم » ، ومن السنته النارية ولدت الكنيسة الجسد السرى للرب ، وبحلوله يتحول الخبز والخمر الى جسد الرب ودمه الأقدسين . انه الأيقونوغرافى الالهى الذى يبدع الأيقونة غير المصنوعة بالأيادى . وهو الذى ينطق فى داخلنا ومعنا « يا أبا الآب » ليؤهلنا لأن نتضرع : « يا أبا الآب » أرسل لنا روحك القدوس لنتمكن من أن نقول « يسوع المسيح رب » ولنتمكن أيضا من أن نتمعن فىوجهه لنرى « الله ـ الانسان » .

وفى يوم العنصرة صار الروح القدس عاملا من داخل الطبيعة وأصبح واقعا باطنيا و « زميلا » لحياتنا فى السيد المسيح . وهو من البداية الى النهاية الذى يهىء النفوس لأن ترى فى الكنيسة أيقونة الوحدة التى تجمع بين الأعداد .

والصلوات الشعائرية لتقديس الأيقونة تقول : « أيها السيد الرب الاله ـ لقد خلقت الانسان على صورتك التى شوهها السقوط ، ولكن بتجسد مسيحك الذى صار جسدا

رممت الصـورة وبذلك رسخت قديسيك فى كرامتهم الأولى ٠ وبتكريمهم نـكرم صـورتك ومثالك ، ومن خلالهم نمجـدك بوصفك بكر الخلائق » (١١) ٠

والأيقونة تستند أيضـا الى تيئولوجية الأسفار الالهية فيما يتعلق بالاسم ٠ فاسم الله هو أيقونتـه الشفوية ، ولا يمكن التلفظ به باطلا لأن الله حاضرا فى اسمه ٠ و « صلاة يسوع » مغروسـة فى هـذا المبدأ الـكتابى ٠ والشـعائر الخاصـة بتقـديس الأيقونة تجعلهـا تتطـابق مع حقيقـة مضمونها ومع الاسم الذى تحمله ٠ وكلمـات السيد المسيح وقت صـعوده « ها أنا معكم الى انقضـاء الدهر » ظهـرت منطوقة للسمع ، وفى الافخارستيـا للقوت ، وفى الأيقـونة للالتقاء التضرعى ٠

والانسان هو على صـورة الله حتى فى تركيب ذهنه ، وهو لذلك يفكر ويتمعن ويتخيل و « يخلق » الجمال برموزه وأيقوناته ٠ وهذه الحقيقـة واضحة من تعـدد الأشـكال لأيقونات السيد المسيح الذى يكشف عن ذاته بطريقـة فريدة

---

(١١) هنا أيضـا يبـدو أننا تناسينا ضرورة تقديس الأيقونات لتنسجم مع وضعها فى الـكنيسة ٠

لكل أيقونوغرافى على حدة · فهناك وجوه مقدسة بعدد الأيقونوغرافيين الذين رسموا الوجه المقدس · بل ويمكن القول بأن عدد الوجوه أكثر لأن الأيقونوغرافى الواحد (المدرك لرسالته) لا يكرر رسمه اذا ما رسم ايقونتين لربه · ويوضح الأنبا ديونيسيوس هذا الواقع بقوله : « وجه الوجوه : وجه اللاموصول اليه » ·

سابعا ـ القوانين والحرية الخلاقة :

ان الفن الالهى قاعدة ثابتة وتقليد كنسى · على أن الفن والموهبة مع ضرورتهما لا يكفيان لأن هناك شرطا ثالثا لابد منه هو قداسة الحياة : حياة روح تقدست بالتعبد والصلاة المدعمة بالتأمل · لأن الأيقونة لكونها مكانا ثيئولوجيا هى تسبحة وترنيمة بالألوان (١٢) ·

---

(١٢) ليتمعن هذه الكلمات كل الذين يكتفون بشراء صورة أو حتى بنقلها عن فنان مشهور لتقديمها الى الكنيسة ! كذلك أرجو من حضرات الآباء الكهنة بكل احترام أن لا يقبلوا أية صورة لمجرد أنها مهداة ، بل ليتأملوها ويتأكدوا من مطابقتها للطقوس والتقاليد الكنسية أولا ، وليطلبوا من الفنان المزمع رسم أيقونة أن يريهم نموذجها أولا ـ وبعد ذلك يقبلوها أو يرفضوها دون احراج ·

فالأيقونوغرافى يجب أن يتحلى بتلك المزايا التى تمكنــه من التــلاقى مع السماء · اذ لابد من الادراك بأن الأيقونة ليست جميلة فى حــد ذاتهــا ولــكنها جميلة بالحق الذى تعلنه · فهى توصل بين اللانهائيين : النور الالهى والروح الانسانية ·

ولقــد رتبت الــكنيسة القوانين المنظمة لوضع الأيقونات فى مبــانيها · ومن هذه القوانين أن كل ما يأتى من مصــنع تجــارى ليس به من النقـــاوة مايؤهله لأن يوصــف بالفن الالهى (١٣) والفن الأيقونى ليس مجرد تلاعب حر للخيـــال ولــكنه يتطلب التمعن فى الشخصــيات العليــا : الشــهداء والقــديسين بعــد التمعن فى ربهم وفى والدة الاله · ولأن هذا التمعن شخصى فالخميرة الخــلاقة تؤدى عملها فينتج كل أيقونى انتـــــاجه الفردى رغم كونه داخل الاطــار الطقسى والتقليدى· وأى شخص يعطى نفسه فرصة للتأمل فى أيقونات أصيلة لموضــوع واحد ينــدهش من اختلافها رغم تشابهها · فليســت هنـــاك واحــدة منقولة نقـــلا آليـــا حتى لو كان الموضــوع الواحــد عالجـــه الأيقونوغرافى نفســه أكثر من مرة · وهــذا ما تتميز به أيقونات عصــور الازدهار الفنى فى الــكنيسة · فقــد ظل الأيقونوغرافيون فى تلك العصــور

---

(١٣) مـ نله أذنان للسمع فليسمع ·

أمنـاء على الطقس والتقليـد ولو أن كلا منهم وضع لمسته الشخصية وبالتـالى جعل من أيقونتـه صـورة لحيـاة كلها حركة بل وفوران أيضـا · ولهـذا السبب ما زالت هـذه الأيقونات مثـار الاعجـاب والدهشـة عنـد كل متـذوقى الفن الى الآن ·

ثامنا ـ الفن الالهى :

ان الأيقونة تلمح الى الـكمال فى شىء من الروحانية ، وبهـذا الالمـاح تذكر الانسان أنه على صـورة الله ، وأنه ملاك أرضى ، ومخلوق للتطلع الى السماء · والأيقونوغرافى يتجـاهل الواقع المـادى الذى تراه العين الجسمية ، انه يقدم للنـاظر مبـادئه الخاصـة ويرشـده الى الرؤية الحقيقية · فمـا يقـدمه فن روحانى ، وثقافـة ضخمة ، وحس مرهف ، مستهدفا ابراز « النـار الـكامنة » وجعلها تنبض بالحياة · والانسان الأرضى يصبح انسانا سماويا وكأنه مجنح ·

والجسم الانسـانى فى الأيقونة مغطى علامة على سر التجلى الذى يمكن التماحه بين تنيـات الثوب · والوجـه هو المعبر عن الروح · والانسان « الداخلى » هو الذى يواجه المتأمل ··· هذا الفن الأيقونى كون على حدة ، كون متجدد

تعيش فيه الأنشطة الالهية كما تعيش فيه النـاس الذين ارتسمت الأبدية على وجوههم : كون لا حـد له ممتد الى الملكوت .

والشخصيات مصورة فى هذا الكون اللانهائى تبعا لأهميتها ولحجمها الروحى . ولهذا نرى القديس مرقس مثلا واقفا كأنه عملاق والأسد رابض عند قدميه فى حجم القط الصغير . والخلفية باللون السماوى أو بالذهبى تعبيرا عن الحياة فى شوامخ السماوات . وليس ذلك فحسب بل ان الأيقونة الأصيلة تقدم فكرا شاملا : فأيقونة الميلاد تحدثنا عن كل الأحداث فى حياة ربنا ، وعلينا أن نتفهم رسالتها هذه فى شموليتها - وهذا يستلزم « عين القلب » .

ومنذ أن تجسد الكلمة أصبح الوجه هو المحور : الوجه الانسانى لله . يبدأ الأيقونوغرافى دائما بالرأس الذى به يحدد المقياس والموقف للجسم - لأن الرأس يسيطر على كل الصورة . وأبرز ما فى الوجه العينان : انهما النار الالهية التى تنير أعماق الانسان . والشفتان دقيقتان اذ هما مصنوعتان لتسبيح الله وتمجيده ولتسلم الافخارستيا . وتعلو شفتى الشهيد ابتسامة هادئة توحى

بصفاء النفس : انه سما فوق كل عذاباته · وهذا هو السبب فى أنه لا توجد أيقونة للشهداء ساعة تعذيبهم كما لا توجد أيقونة ترسم آلات التعذيب · فهذه سمة من سمات الفن الأيقونى الشرقى الذى يستهدف رفع الرؤية الى تأمل السماويات حيث وصل الشهداء مكللين بأكاليل انتصاراتهم· ووضع الوجه فى مصارحة المتأمل بعينيه الواسعتين يقيم صلة مباشرة بين الشخص المرسوم فى الأيقونة وبين من يتمعنه مما يجعله فى وحدة روحية معه · وكما أن الشرقى يستهدف من الأيقونة ابراز انتصار الشهداء فهو أيضا لا يرسم السيد المسيح على الصليب الا فى أعلا حجاب الهيكل ـ لأنه يعتبر الصليب الذى لا يعلوه الرب علامة الانتصار العظمى · كما أن التركيز فى الفكر الشرقى هو على القيامة المجيدة والقبر الفارغ · وهكذا نجد أن الأيقونة ـ سواء كانت عن الشهداء والقديسين أو عن رب الشهداء والقديسين ـ توحى بالسلام العميق(١٤) · والواقع

---

(١٤) استصحبت ذات يوم صحفية هندية الى كنيستى السيدة العذراء (المعلقة) وأبى سرجة · وحين هممنا بالخروج من الكنيسة الثانية وقفت قليلا وهى صامتة ثم قالت لى : « لابد أن السلام كان يملأ قلوب من شيدوا هذه الكنائس ورسموا هذه الأيقونات لأنى أحس بسلام عجيب تسرب الى داخلى وأنا فى داخلها · فهم لم يمتلئوا سلاما

أنها تنير العينين اللتين تبصران وترتفع بالفهم الى معرفة الالهيات · انها السهم الأخير الذى يطلقه القلب المحب الى الأسرار الالهية · ويقول لنا غريغوريوس الأرمنى : « ان الذى يتأمل النور الالهى يتأمل سر الله · والأيقونة تبدو كأنها الومضة الأخيرة على سر الله ·

والانسان ليس بمستطيع أن يخترع الله اذ لا يمكن الذهاب الى الله الا بالمجىء من عنده · وان تمعن الانسان الله فلأنه موجود من البدء فى فكر الله ولأن الله يفكر فى داخله · ومن هذا المنطلق لا يستطيع انسان أن يخترع الأيقونة · ولئن تطلع الانسان نحو الجمال فلأنه غائص فى نوره ، بل بالحرى لأنه فى جوهره التعطش بذاته الى الجمال · فالانسان عند مدخل حياته نحت على الصورة

فحسب بل شع عنهم الى انتاجاتهم الى درجة التأثير فى » قلت لها : « ومع ذلك فقد جازوا ضيقات لا حصر لها فلم يعيشوا فى سلام » · أجابتنى : « كانت الاضطرابات خارجية ولم يدعوها تتسرب الى داخلهم فظلت قلوبهم هادئة مطمئنة » · فليمنحنا الله نعمة الاحتفاظ بسلامه فى داخلنا رغم كل الأحداث الخارجية ·

الالهيـة ، والصورة تبحث دائما عن أصلها · ففكر الله ، واسمه منطوق به أو مكتوب ، والأيقونة ، ليسوا مجـرد مضمون فـكرى أو تصـــورى ، ولـكنهم لقـــاء وحضرة مبـاشرة مولدة للوحـدة · ولئن كان الانسان لا يمكنه الى الآن أن يقول شيئا عن الله فهو يستطيع أن يقول « الله » · « أنت » · « أبى » ·

والانجيل لا يكف عن أن يقـول لنـا : « من له أذنان للسمع فليسمع » ، وهذا معنـاه من غير شك أيضا : « من له عينان للنظر فلينظر » · والبرهان على هذا يأتينـا من النور المبهر : هذا النور المعبر عنه فى الأيقونة · انها تعكس هذا النور ·

انها استنارة وضراعة · انها المـكان الذى ينزل اليه الجمـال الالهى ليلتقى بنا (١٥) · ففى أيقوناتك المقـدسة أيها الرب الله نرى المظال السماوية ونتهلل بفرح مقدس · فالـكتاب المقـدس ينفتح بكلمة « ليكن نور » ويقول لنـــا « فليأت الروح القدس » ·

---

(١٥) فليتأمل القـارىء هذا التقـدير الروحى للايقونة وليقارن بينـه وبين غالبية الصور (الأيقونات) التى نراها فى الـكثير من كنائسنا الحديثة !

ثم يختتم برؤيا المدينة السماوية قائلا لنا : « فليكن الجمال » والقلب الانسانى يتهلل لأن الجمال الذى هو « نعمة فوق نعمة » يسمو بعدالة القاضى الأعلى نحو الجمال الحانى لله المحب ٠

تاسعا - (أ) الثالوث الأقدس :

بين الكيان والعدم ليس هناك مبدأ للوجود غير الثالوث الأقدس ٠ انه الأساس الراسخ الذى يوجد الفردية والمجموعية ويعطى المعنى النهائى لكل شىء ٠ والفكر الانسانى اذا ما تقبل الاستعلان الموحى به ينصلب لكى يولد فى النور الثالوثى للحقيقة المطلقة ٠ فصورة الله الثالوث الواحد تنتصب بكونها المستوى النموذجى الفريد لكل وجود ٠ ولهذا السبب نودى على المسيحية أن تنتهج فى حياتها الحقيقة الالهية ٠ فيقول لنا غريغوريوس النيسى : « ان المسيحية هى محاكاة الطبيعة الالهية » ٠ فكنيسة الثالوث الأقدس هى النجم الهادى لكنيسة الانسان على الأرض : أى كنيسة مجتمع المحبة المتبادلة والوحدة فى الجماعة - وحدة كل الأشخاص فى طبيعة واحدة ملخصة فى السيد المسيح ٠

والعقيدة تعلن : ثلاثة أقانيم بطبيعـــة واحدة أو جوهر واحد والأقانيم الثـلاثة المتساو والجوهر هم الوحدة المطلقة والتنوع المطلق انهم متحدون لا ليمتزجـوا ولـكن ليحتوى الواحد الآخر · وكل أقنوم هو الوسـيلة الفـريدة لاحتواء الجوهر الواحد ولتقبله من الأقنومين الآخرين ولاعطائه لهما وبالتـالى لـكونه ثلاثتهم ، والشعار الآبائى هو : « اله واحد لأنه آب واحـد » · وتبعـا لهـذا التعليم الآبائى ، وفى حركة من الحب أبدية ، فالآب ـ المنبع » يعلن الابن والروح القدس اذ يعطيهما ذاتيته (١٦) ·

والواحـد عزلة ، والاثنـان عدد للتفريق ، أما الثلاثة فعـدد يمتد الى ما بعـد التفرقـة لأن فيـه يتجمع المفرد والعـدد · ويقول لنـا غريغوريوس الأرمنى : « ان الروح القـدس هو البهجة الأبدية للآب والابن حيث يتعاطف ثالوثهم فى وحـدتهم · فالله محبـة فى ذاته فى جوهره الثالوثى ، ومحبتـه للعـالم ليست سوى انعكاس للمحبـة الواحـدة

---

(١٦) وهذا هو الأساس فى الرفض الأرثوذكسى انبثاق الروح القـدس من الابن أيضا لأن مثل هذا الانبثـاق يجعل من الثالوث الواحد ثالوثا مفترقا اذ ينبثق الأقنوم الثـالث من مصدرين لا من مصدر واحد ·

المتساوية للأقانيم الثلاثة . وبذله ذاته ليس نقصانا بل هو التعبير عن الفيضان الطافح للمحبة التى هى ذاته . ويعلمنا يوحنا الرآئى أن « الحمل مذبوح قبل تأسيس العالم » . فالمحبة والبذل والذبيحة سابقة على عملية خلق العالم - بل هى مصدرها . فالصليب اذن محفور فى الدائرة المقدسة للحياة الالهية . انه المحور الحى للمحبة الثالوثية . فالآب هو المحبة الصالبة والابن هو المحبة المصلوبة (١٧) والروح القدس هو صليب المحبة وقوته اللامقهورة .

والسلطان الالهى الذى نعلنه فى قانون ايماننا بقولنا : « ... الله الآب ضابط الكل ... » هو سلطان

---

(١٧) ويعبر أبونا متى المسكين عن هذه الحقيقة عينها بقوله : « لقد ظن بيلاطس أنه كان بسلطانه أن يطلق سراح الرب ولا يحكم بصلبه ، فراجعه السيد المسيح مؤكدا أن ذلك انما هو ادعاء ووهم ، وصحح له مسار القضية كلها من اتهام ودفاع وقضاء . فبيلاطس كان ينطق بما تمليه عليه السماء !!.. فالحكم بالآلام والموت على الصليب كان أولا وأخيرا ممزوجا حبا بيد الآب الذى أحبه من قبل انشاء العالم ، بل من أجل حب الله للعالم ... » عن كتاب ٣ « مع المسيح فى آلامه حتى الصليب » - الطبعة الرابعة سنة ١٩٨١ - ص ١٧٠ .

محبة الآب . وبما أنه محبة فلا يمكن أن يستعلن الا بالتواصل ، ولا يستطيع أحد أن يدركه الا بالتناول وقول سيدنا له المجد : « لا يستطيع أحد أن يأتى الى الآب الا بى » يتضمن بالضرورة : « لا يستطيع أحد أن يأتى الى الا بالآب » . وهذا القول تعبير عن أعمق استعلان خلاب للمحبة الالهية . فلن يمكن التعرف على الله خارجا عن التواصل بين الله والانسان .

والانسان مخلوق على صورة الله الثالوث الواحد ، و « الكنيسة - التواصل » بطبيعتها منحوتة على هذه الصورة . فكل الناس مدعوون الى الوحدة حول الكأس الواحد الفريد ، وهم بالتالى مطالبون بالتسامى الى مستوى القلب الالهى والتناول من العشاء المسيانى ليصبحوا جميعا « الهيكل الحمل » الواحد .

(ب) السيدة العذراء :

ان السيدة العذراء تجسد القداسة الانسانية . والتركيب العذراوى لكيانها أمر غير محتمل اطلاقا من القوى الشيطانية . ولارتباطها الجذرى بالروح القدس فهى العزاء المجدد : انها حواء الجديدة التى تؤمن وتحمى

كل مخلوق · فتنتصب أمامنا مثالا للكنيسة فى امومتها الراعية ·

وتكريس السيدة العذراء لحياة الهيكل وبالأولى محبتها الفريدة لله تبلغان فيها مدى عمق ومدى عنف الى حد أن الحبل بالابن الكلمة يتحقق فيها بوصفه الاستجابة الالهية لتعميق حياتها التضرعية وشفافيتها لأنشطة الروح القدس · ويقول كيرلس الكبير (عامود الدين) مخاطبا اياها : « لقد ولدت الابن الوحيد من غير أن يكون له أب ، هذا الابن المولود من الآب من غير أم » · ومقابل الأبوة الالهية بغير أم من حيث اللاهوت تتقابل الأمومة بغير أب فى الثيئوتوكس من حيث الناسوت : المثال اللامومة العذراوية التى للكنيسة · ولقد كانت استجابتها الحرة ضرورية لأن خلاص الانسان لم يكن تحقيقه ممكنا من غير التعاون الحر بارادته الشخصية · فكما شاء الابن الوحيد أن يتجسد بارادته كذلك شاء أن تلده أمه بمحض ارادتها الحرة لأن النعمة الالهية لا تغصب الطبيعة الانسانية · اذن فالسيد المسيح أمكنه ان يتخذ جسدا لأن الانسانية فى شخص مريم أعطته اياه · فتكون السيدة العذراء قد ساهمت فى التجسد مع كونها لم تساهم فى الفداء (الذى اختص به السيد المسيح وحده) · وبأزاء استجابتها للفداء

السماوى تهتف الانسانية : « ماذا نقدم لك أيها المسيح ؟ لقد قدمت السماء ملائكتها والأرض ثمراتها · أما نحن البشر فنقدم لك « أما - عذراء » فواضح أن السيدة العذراء ليست امرأة بين النساء ولكنها مجيء المرأة المصححة فى عذراوية أمومتها والانسانية كلها فى شخص العذراء معطى لها أن تلد المسيح - وهذا هو السبب فى كونها حواء الجديدة · وأموميتها الحانية التى رعت الطفل يسوع ترعى الآن الكون وكل مخلوق انسانى · وكلمة الرب من على الصليب « هذا ابنك » قد رشحتها فى هذه الكرامة : كرامة الأم الشفيعة ·

والانجيل يضع التوكيد على كل شخص « يصنع ارادة الله (١٨) · وهذا التوكيد معناه أنه معطى لكل انسان النعمة لأن يلد المسيح فى أعماق روحه فيتطابق روحيا مع الثيئوتوكس · الا أنه - لكى يصل الى هذه العطية - يجب أن يسلم تسليما كاملا وفوريا لارادة الله كما فعلت الثيئوتوكس (١٩) · وبهذا التكيد عينه أيضا تكون السيدة

---

(١٨) لوقا ٨ : ١٩ - ٢١ ·

(١٩) هنا أيضا نجد تلاقى الفكر الأرثوذكسى اذ يعبر الأب متى المسكين عن الحقيقة عينها فى كتابه : « أعياد الظهور الالهى » - « رقم (١) » سنة ١٩٨٠ - ص ٧٩ ·

العذراء قد نالت الكرامة العظمى لأنها صنعت ارادة الله الى حد جعلها أمه بالجسد ٠

والسيدة العذراء قد سبقت الانسانية والكل يتبعونها ٠ لقد كانت أول من اجتاز الموت الذى قهره ابنها ٠ فاصعاد جسدها أغلق أبواب الموت اذ قد وضع الله ختم العذراء على العدم ٠ لقد انختم العدم من فوق بالله الانسان ، ومن تحت بأول انسان جديد أقيم وتأله٠ فسر الكنيسة يتحقق فى الكمال الالهى الذى للسيد المسيح، وفى الكمال الانسانى الذى للسيدة العذراء ٠ وتعبر الشعائر المقدسة عن هذا التلاقى بين اللامخلوق بالمخلوق فتهتف : « ترنموا أيها المؤمنون بمجد الكون ، بباب السماء ـ العذراء مريم فخر جنسنا الانسانى ووالدة الاله » ٠

ولقد وضع الآباء بداية الكنيسة فى الفردوس حيث كان الله يتمشى فى المساء ليتحدث الى الانسان ؛ فجوهر الكنيسة هو التواصل بين الله والانسان ـ هذا التواصل الذى يبلغ ذروته فى سر التجسد ٠ والغالبية من ايقونات السيدة العذراء فى التقليد الأرثوذكسى تقدمها حاملة ابنها الالهى تعبيرا عن التجسد ، وتعبيرا عن الكنيسة : منتهى

التواصل الالهى (الابن الكلمة) بالانسانى (الأم العذراء) وهكذا تصور لنا أيقونة العذراء الحاملة للابن الكلمة المحبة الجنونية (٢٠) التى لله نحو الانسان · واستجابة لهذه المحبة العارمة يهتف غريغوريوس النيسى : « أنت يا من تحبه نفسى » ·

(د) الميلاد العجيب :

ان الليتورجيا فى مضمونها الخاص تعلم مبدأ تربويا أساسيا : فالاشتراك فى تاديتها ليس مركزا عليها بل على الله وعلى بهائه الذى يتوجه الانسان نحوه · ومن خلال الصلاة الليتورجية تتفتح الروح الانسانية فى عبادة خالصة نقية من كل هدف نفعى · فتتعلم الروح الانسانية أن « الملائكة تدهش وتغطى وجوهها بأجنحتها » · واذ تتفهم هذا الدهش تشخص الى الحدود اللامدركة لذاك الذى لا حد له ، الذى لمحبته اللانهائية تنازل ليتخذ جسم « ابن الانسان » · فتترنم الليتورجيا « لأنه ولد لنا ابن هو الله السابق على كل الدهور » · وكلمة « ابن » فى هذه الجملة تهدف الى ابراز التوهج الالهى داخل الانسانى · والمضمون التربوى يتسلل بوضوح ، فالعجب الأول هو

---

(٢٠) L'amour fou de Dieu pour L'homme

التنازل الالهى تتبعه آية الأمومة العذراوية - المخلوقة تلد خالقها ، ومن هاتين الأعجوبتين تنبعث الثالثة وهى تأله الانسان · ولكى تؤكد الكنيسة هذا المضمون تترنم : « اننا نعيد ميلادك العجيب أيها المسيح الهنا ، فاجعلنا أن نرى تجليك المقدس ·

ولقد كان السقوط عنيفا الى حد أن الانسان حينما حطم به الصورة الالهية حطم به أيضا الصورة الانسانية· ولكى يجبر الله هذا التكسر تأنس ليعيد الصورة الأصلية الى كرامتها المذهلة · والآن هوذا الكل قد صار جديدا: انها الخليقة الجديدة التى بدىء بها فى الفردوس حينما كان الله يتمشى عند الغروب ليتحدث الى الانسان · فالانسان الذى استعبده الموت والذى سقط من شاهق وهو - له المجد - اذ أخذ شكلا مائتا حرر رجم حواء من اللعنة القديمة (٢١) · فأصغى أيتها السماوات ، وأميلى

---

(٢١) هذه عبارة أرجو أن يتمعنها كل من يصرون على أننا بنات حواء وبالتالى مازلنا تحت لعنتها ، متناسين أن رب حواء قد أعتقها هى وبناتها بالضبط كما أعتق آدم وأبناءه ·
الحياة الالهية أعاد اليه الصانع الأعظم شكله الأصيل ·

بسمعك أيتها الأرض ، لتهتز أساساتك ، وليستولى الفزع على الجحيم ، لأن الخالق أعلن أنه هو ذاته القلب الخافق لخليقته · فيقول غريغوريوس النزينزى : « ان سر التجسد هكذا عظيم وهكذا مخوف الى حد أن التعبير عنه كله اشارات ورموز والمتبقى صمت » ·

ولما كان ميلاد الكلمة المتجسد هو المدخل الى الصليب فيجدر بنا أن نذكر ما يعلمنا اياه التقليد وهو أن الصليب كان مصنوعا من خشب « شجرة الحياة » الفردوسية · ولأن الصليب قد انزرع وسط الكون فقد ازدهر الى شجرة الحياة الحقيقية ، وأفرخت أغصانه ، فقدم لنا ثمار الحياة الأبدية التى هى الافخارستيا المقدسة ·

وكذلك يجدر بنا أن نذكر أن استعلان الله للامم قد بدأ من العهد القديم فى ومضات خاطفة ساطعة معا · وهنا سر عظيم للحكمة الالهية : فمن الأمثلة الشامخة أيوب وملكة التيمن وملكى صادق ثم المجوس · فهؤلاء مع كونهم « خارج اسرائيل » كانوا « قديسين وأبرارا » أرضوا الله بأعمالهم (٢٢) · وكان آباء الكنيسة الأوائل يحبون

---

(٢٢) أنظر أيضا اشعياء ١١ : ١٠ ، ٤٢ : ١ و٦ ، ٤٩ : ٦ ، ٢٢ ، ٦٠ : ٣ ، ملاخى ١ : ١١

التحدث عن « زيارات الكلمة » قبل مجيئه الشامل · فالى جانب العهد مع اسرائيل هناك عهد مع الأمم : ومعرفتهم بالله على شكل من الايمان بالعناية الالهية وبتدخلها فى التاريخ · فيقول لنا القديس ايرينيئوس : « ان الكلمة الالهى لم يكف أبدا عن أن يكون حاضرا بين الجنس البشرى » والمجىء الكونى كان الرجاء الذى وحد بين التطلع المسيانى عند اليهود والوحى النبوى عن الحكماء الروحانيين الوثنيين · وفى هذا الصدد يعلن اكليمنضس الاسكندرى بأن الله قد أعطى الناموس لليهود والتنبوء للوثنيين (٢٣) ·

---

(٢٣) يجدر بنا أن نذكر أن آباء الاسكندرية وكبار معلميها كانوا يعلمون فى مدرستهم العظمى الفلسفات والتعاليم الروحية الوثنية ، معلنين أن كل قبس للفكر الانسانى موحى به من الله ، وأن حكماء الوثنيين نالوا هم أيضا نصيبهم من ارشاد الله · وقد استندوا فى تفكيرهم هذا الى استعلانات الله للاممين فى العهد القديم · ويؤيد الكثيرون من المفكرين المعاصرين هذا الاتجاه - راجع :

H.G. Breasted : The Dawn of Conscience. The

وكذلك كتاب المصرولوجى العبرى جوردون عن :

Background of the old Testament.

(د) المعمودية :

ان الرموز كلها تتجمع وتتكثف فى المعمودية التى هى شاملية رهيبة · فكلمة السيد المسيح ليوحنا : « هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر » هى النداء الأول الذى تردد نهائيا فى جسثيمانى : « ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت » · ويوحنا المعمدان خادم للشهادة : شهادة خضوع السيد المسيح ، وهو فى الوقت عينه يمثل الجنس البشرى كله : ففى يوحنا شهدت الانسانية المحبة الالهية · وهذه المحبة تنتهى الى المعمودية التى تتضمن من البداية الموت على الصليب والقيامة من الأموات · فالكلمة يأتى الى الأرض نحو الناس · ونحن هنا نواجه اللقاء الفاتن فى روعته بين الله والناس : « لما اعتمد جميع الشعب » ففى يوحنا المعمدان يتفهم الجميع أنهم « أصدقاء العريس » فكما أن استجابة السيدة العذراء للبشارة كانت «النعم» من البشرية كلها للتجسد ، هكذا كان تعميد يوحنا للسيد المسيح هو « النعم » لتلاقيها بالصداقة الالهية ـ وبمحبة الآب ·

ويحدثنا الانجيل الرابع من بدايته عن يوحنا المعمدان، فبعد أن يعلن لنا أنه « فى البدء كان الكلمة ·· » يقول لنا مباشرة « كان انسان مرسلا من الله ··· » وحين نتمعن هذا الترابط نحس بأن مجىء يوحنا كان أيضا

من « البـــدء » . لقـد انفتحت السماء أمامه وشـهد هو بذلك : « انى رأيت الروح نازلا عليه ... وأنا قـد رأيت وشهدت أن هـذا هو ابن الله . هذه الـكلمات تلخيص لكل الانجيل . فيوحنـا هو الذى يعـــرف والـذى يشير الى « الحمل » اذ قـد استعلن له هـذا السر الأزلى : سر الحمل المذبوح قبل تأسيس العالم .

ويقول أحد المفسرين : « بينما نزل يسوع الى المـــاء التهب الأردن بالنـــار » . فالمعمودية من هذا المنطلق استنارة ـ ميلاد الذات من النور الالهى . وكما أن الروح القـــدس حين رف على الميـــاه قـديما قـد أيقظ الحيـاة ، هكـذا برفـه على الأردن قـد أيقظ الميلاد الجديد للحياة الجديدة . ولقـد تغير مغزى المـاء منذ أن نزل فيـه الرب . لقـد كان قديما صـورة للموت (فى الطوفان) ، فأصبح « ينبوع ماء الحيـاة » . ويعلن لنـا ذهبى الفن بأن « التغطيس فالبزوغ منه هما صورة للنزول الى الهاوية فالقيامة المجيدة » (٢٤) .

---

(٢٤) هـذا الربط بين الميـــلاد والمعمودية والصـليب وغيرها من أحـداث حيـاة السيد المسيح على الأرض هو من أهم التعـاليم التى أكدها الآباء . وهم بتوكيـدهم على وجوب التأمل فى حيـاة فادينـا الحبيب تأملا شامليـــا ، يؤكدون علينـا أيضـا ضرورة اليقين بالترابط الوثيـق بين الأسفار الالهيـة من سـفر التكوين الى سفر الرؤيا ، لأنهـا

عاشرا ـ العنصرة :

ان انسكاب الروح القدس ينساب من ملء الاستعلان الثالوثى ـ فاليوم يبدأ الباراكليت فى داخل الانسان معرفة جديدة باطنية : عبادة واحدة للثالوث الأقدس · وهذا هو تدرج الاستعلانات : فالكلمة والروح متلازمان فى عملهما الاستعلانى للآب ، وكلاهما منه بل ومن جوهره · فالروح القدس اذن ليس تابعا للابن وليس مجرد نشاط من أنشطته · انه ـ كما يذكرنا غريغوريوس النزينزى ـ « معزيا آخر » · ونرى فى التدبير الالهى للابن وللروح عملا متبادلا ولكن العنصرة ليست مجرد استمرار للتجسد ان للعنصرة قيمتها الخاصة فى حد ذاتها لأنها العمل الثانى للآب : فالآب أرسل ابنه وهو الآن يرسل روحه · وبما أن السيد المسيح قد أكمل عمله فهو يعود الى الآب لكى ينزل الروح القدس شخصيا · ويوضح لنا

كلها تعلن لنا حقيقة واحدة هى حقيقة عناية الله بالانسان ومحبته اللانهائية لخليقته ·

ومما تجدر الاشارة اليه أيضا أن هذا الكاتب (وغيره ممن يكتب فى الأمور الروحية) يقتبسون الشواهد الكثيرة من آباء كنيستنا القبطية ـ فحبذا لو تعلمنا أن ننتهج هذا النهج ·

أثناسيوس الرسولى هذه الحقيقة المذهلة فيقول : « لقد اتخذ الابن جسدا لكى نستطيع نحن أن نتقبل الروح القدس » · بينما يقول لنا القديس سيميون : « هذا كان الغرض والمصير لكل عملية خلاصنا بالسيد المسيح : أن ينال المؤمنون به الروح القدس » ·

ولقد أعلن السيد المسيح بأنه جاء ليلقى نارا على الأرض ، وهذه النار هى الروح القدس · فتحت شكل الألسنة النارية تخلل الروح القدس الطبيعة البشرية وألهبها وألهها ، اذ هو فى الوقت عينه يجعل الطبيعة الواحدة للثالوث الأقدس تسطع باطنيا داخل النفس الانسانية · ولقد سبق أن أوضح الفادى الحبيب فى خطابه الوداعى لتلاميذه هذه الحقيقة المرهبة بقوله : « فى ذلك اليوم - يوم العنصرة - تعرفون أنى فى أبى ··· وأنا فيكم ··· » (٢٥) ويستكمل يوحنا هذا الحديث السيدى عن « الحلول الثالوثى فى الانسان » بالكلمات : « نأتى اليه وعنده نصنع مسكنا » (٢٦) - وهذا هو تحقيق عيد الملكوت · ولقد أكد لنا الآباء بأن الثالوث الواحد

---

(٢٥) يوحنا ١٤ : ٢٠ ·
(٢٦) يوحنا ١٤ : ٢٣ ·

يتعرف عليه الانسان بالروح القدس . فقد أوضح لنا سفر الأعمال هذا التوكيد معلنا بأنه « ظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم (٢٧) - فكل رسول نال لسانا معطى له شخصيا . وفى هذا الصدد يعلمنا كيرلس عامود الدين : « اننا كاننا مذابون فى جسد واحد ولكننا منقسمون الى شخصيات . ففى داخل وحدتنا فى السيد المسيح ينوع الروح القدس ويمنح كل فرد المواهب المناسبة له » . والكنيسة تقدم أيقونة الثالوث الأقدس للمؤمنين يوم عيد العنصرة ليتأملوها بوصفها مرآة الهية يقرأون فيها الحقيقة الخفية لحياتهم الخاصة .

والعنصرة تعطينا توضيحا مذهلا لتلك الصرخة الرهيبة التى انطلقت من الفادى : « الهى . الهى . لماذا تركتنى ؟ » فهذه الصرخة لعنفها الفزع قد دكت أساسات الجحيم ، ومذاك تحول باب الموت الى باب الحياة ، وهذه الصرخة بعيتها تعلمنا بأن الانسان عليه أن لا ييأس أبدا لأنه لن يسقط الا فى يد الله . والله لا ييأس من أى انسان! واليد الممتدة نحو السيد المسيح لا تظل فارغة اطلاقا .

---

(٢٧) أعمال ٢ : ٣ .

ويصف لنا يوحنا البشير العشاء الربانى ، ومنه نرى يهوذا يفتح يده ليأخذ الخبز الاقخارستى · وبوضع السيد المسيح هذا الخبز فى يد تلميذه يطلق نحوه آخر نداء للعودة اليه (٢٨) · ويغلق يهوذا أصابعه على الحمل المذبوح ، ويخرج « وكان ليلا » · فيتقبله الليل لأن الشيطان داخله · ولكن يهوذا يحمل فى يده التى هى يد الشيطان هدية مخوفة · ولقد احتفظ الجحيم فى أحشائه بهذه الهدية المخوفة : هذه القطعة من الخبز التى جعلها الفادى جسده · انها قطعة من النور · واذ يحملها يهوذا الى الجحيم تصبح التعبير الصادق الدقيق عن أن « النور أضاء فى الظلمة » · ولئن جاب اليائسون أعماق الشيطان فالانجيل ينادى على المؤمنين بنقل الجبال الشيطانية التى للعالم الحديث وبسحب هذا العالم من العدم الذى هو فيه الى الكيان البنتيكوستى المتفجر ·

---

(٢٨) يقول لنا آباء كنيستنا القبطية بأن يهوذا نفسه لو كان قد عاد الى السيد المسيح معترفا بذنبه لكان قد نال المغفرة · ويؤكد لنا أنبا باخوم (أبو الشركة) هذه الحقيقة بقوله : « ليست خطية بلا مغفرة الا التى لايتاب عنها · وكل الخطايا مهما تراكمت فهى أصغر من رحمة الله » · وهنا أيضا نجد التلاقى الأرثوذكسى ·

فالنعمة العــارمة التى لعيــد العنصرة تفيض على كل الحدود وتمحوها ٠

والعنصرة تضفى صفة كنسية جــديدة على الانسان : ففى الخاطىء تبرز قــديسا ٠ ولقــد حــدث فى ليسترا أن الجمهور جعل من بولس وبرنابا آلهة ولــكنهما أكدا بأنهما من نفس الطبيعــة البشرية ٠ ويعلق ذهبى الفم على هــــذا الحــدث بقوله : « ان هذا صحيح ٠ فالرسل هم مثلهم وهم فى الوقت عينــه مختلفون عنهم ٠ لأن للطبيعــة الانسانيــة قــد أضيف لسان من النــار » ٠ اذن فالعنصرة هى عيــــد جوهر الــكنيسة ٠ عيد القــداسة ٠ عيد الألسنة النــارية ٠ فيقول لنــا أوريجانوس بأن الــكنيسة المتلئــة بالثــــالوث الأقــدس تتحقق فى الــكنيسة المتلئة بالقديسين ٠

فلنعلم جميعــا أن الــكون كله متجمع حول مجد الله : السماء والأرض ، الملائــكة والنــاس ، ومختلف الخلائق — جميعهم يؤلفون دوكصولوجية من البهاء ٠

رقم الايداع : ٨٣/٣٨٢٦

القاهرة الحديثة للطباعة
احمد بهى الدين التربوطلى
٢ شارع الجد بالفوالة
تليفون ٩٢١٧٢١ - ص ب ٢٩٩١٢٨

مكتبة المحبة

MB

٢٠ ش كامل صدقي بالفجالة

ت ٩٣٩٢٩٤ - ٩٠٣٨٩٥

صور ودروس التربية الكنسية والتربية الدينية المدرسية

كتب كنسية ودينية • جوائز مدارس الأحد

صور دينية • أيقونات قبطية • أدوات كنسية

كاسيت ألحان وترانيم وقداسات وعظات

مناظر طبيعية • هدايا وبراويز • [illegible]